بول هاردينغ

رواية

TINKERS

المُتَسَوِّل

ما يتذكره "چ. كروسبي" مُصلح الساعات

ترجمة: علاء فرغلي

دار دَوِّن

إهداء

إلى ميج، صامويل، وبنيامين

١

دخل جورج واشنطن كروسبي في نوبة هلاوس استمرت لثمانية أيام قبل وفاته، وبدأت هلاوسه برؤية أسراب من الحشرات تدخل وتخرج من شقوق تَخَيل أنها في سقف حجرته الجبسي، راقبها أثناء استلقائه على السرير الطبي المستأجر من المشفى حيث وُضع في منتصف غرفة معيشته بالمنزل. بدت له ألواح الزجاج غير مثبّتة في أطر النوافذ الخشبية كلما تحركت وسقط عليها الضوء؛ بل ظنّ أن أي نسمة قوية قد تهب في اللحظة القادمة ستطيح بها في الهواء فتتساقط فوق رؤوس أفراد عائلته الذين يجلسون على الأرائك ثلاثية وثنائية المقاعد، أو على مقاعد المطبخ التي استعانت بها زوجته ووزعتها في الغرفة من أجل استضافتهم. وتخيّل أنه حين تتطاير ألواح الزجاج في الغرفة، سيهرب الجميع إلى الخارج: أحفاده القادمون من كنساس وأتلانتا وسياتل، وأخته التي تعيش في فلوريدا.. الجميع سيهربون بينما يبقى هو على الفراش وسط شظايا الزجاج المنثور. وسيجتاح المنزل ذاك الغبار المحمل بالزهور الملقّحة والعصافير والمطر والسناجب المتبجّحة التي قضى نصف عمره منشغلًا بإبقائها بعيدًا عن أواني طعام طيوره التي تعيش في المنزل، ذلك المنزل الذي بناه بيديه ووضع

أساساته، ورفع أعمدته وأوصل أنابيبه وربط أسلاكه وركّب حوائطه ودهن جدران غرفه؛ بل كاد البرق يصعقه حين كان يقف عند أساساته الخرسانية ليربط آخر مفصلة من مفاصل خزان المياه الساخنة، قبل أن ينتهي من تركيبه؛ يومها ضربه البرق وألقى به في الهواء حتى اصطدم جسده بالجدار المقابل؛ لكنه تحامل على نفسه ووقف على قدميه ليكمل عمله ويلحم المفصلة الأخيرة.

لم يترك أيًّا من شقوق الجبس دون إصلاح، ليست الشقوق فقط، بل أيضًا كان يصلح الأنابيب عند انسدادها، ويعيد لصق ورق الحائط المهترئ ويطليه بطبقة جديدة من الدهان.

- ائتوني ببعض الجبس!

قال وهو يتململ في السرير الذي اتسم بتصميمه الخالي من أي جماليات، مما جعل شكله متناقضًا مع ما تراكم فوقه من ألحفة مصنوعة من الصوف الفارسي، وما يحيط به من أثاث فخيم، وجدران الغرفة المزدانة بعشرات من الساعات العتيقة.

- أحضروا بعض الجبس! يا إلهي! جبس وأسلاك وخطافين. لن يتكلف الأمر سوى حوالي خمسة دولارات.

- حسنا يا جدي!

- حسنا يا أبي!

مرت نسمة قوية عبر النافذة المفتوحة من خلفه فأنعشت مَنْ أصابهم الإرهاق في أنحاء الغرفة، وعلا صوت ارتطام كرات البوتشي(1) فوق عشب الحديقة الخارجية. وما إن حلّت الظهيرة، حتى صار وحيدًا داخل الغرفة أثناء انشغال أفراد العائلة بإعداد الغداء في المطبخ.

رأى تشققات السقف تتّسع وتتحول إلى فجوات واسعة. عَلِقَت مكابح عجلات السرير في شروخ حديثة ظهرت في ألواح الأرضية الخشبية كانت تتوارى تحت سجادة صغيرة. الأرضية قد تنهار في أية لحظة. شعر بمعدته عديمة الفائدة تكاد تقفز إلى صدره كأنه يركب القطار الحلزوني في ملاهي توبسفيلد؛ حتى أنه شعر بهزة قوية تطال عموده الفقري، وقد تدفع به وبسريره لأسفل فتتحطم أرضية الغرفة، وينتهي به الأمر راقدًا في ورشته بقبو المنزل وسط الحطام. تخيل جورج أن الانهيار وقع بالفعل وبدأ يتصور التفاصيل:

صار سقف الغرفة الآن على بُعد طابقين من الركام في أرضية القبو، يراه عبر الحفرة ذات الحواف المدببة البارزة في ألواح الأرضية الخشبية المحطمة والأنابيب النحاسية المقوّسة والأسلاك التي تبدو كالأوردة الممزّقة، وقد تدلت من الجدران وتمدّدت نحوه كأنها تستهدفه وهو راقد في قاع

كل هذا الخراب الذي وقع فجأة.

سمع أصواتًا متداخلة تأتي من المطبخ، فأدار رأسه ليدقّق النظر فيما حوله.. ربما رأى واحدة من النساء وقد جاءته دون أن يلاحظ وجلست إلى جواره، وفي يدها طبق ورقي ممتلئ بسلطة البطاطس، وشرائح ملفوفة من اللحم المشوي تسنده على حِجرها، وفي يدها كوب من جعة الزنجبيل؛ لكنه لم يرَ حوله سوى الحطام. ظن أنه حاول الصياح لكن أصوات النساء في المطبخ، والرجال في الساحة الخارجية استمرت دون انقطاع.

استكان فوق الركام وواصل النظر لأعلى. سقط الطابق الثاني فوقه بأوتاده الخشبية التي لم تثبّت في أماكنها، والسباكة التي لم يصلح انسدادها بعد. ومن بين ما سقط كانت أرفف خُزّنت فيها المعاطف الشتوية القديمة، وصناديق عتيقة أغفلتها الذاكرة كان تحتوي على ألعاب المسابقات وألغاز الألواح الورقية وألعاب الأطفال المحطّمة وأكياس مملوءة بالصور العائلية، وكان بعضها قديمًا مطبوعًا على صفائح قصدير. كل تلك الأشياء وقعت فوق جسده عبر السقف حتى أنه لم يقوَ على رفع ذراعه كي يحمي وجهه.

ولأن جورج كان أقرب إلى الشبح منه إلى الإنسان، ولأنه كان مجرد ظل؛ فلم يؤثر فيه انهيار كل ذلك الخشب

والحديد وألواح الجدران المتكسرة بطلائها اللامع وورق الحائط الملتصق (فقد استطاع أن يتجاوز الموقف بسهولة تمامًا مثل أنثى شبح تتفاخر بقدراتها الخارقة: تتزحزح لمسافة كافية كي تخرج من تحت الركام دون أن يمسسها شيء، وتنحني أمام جمهورها كأحد نجوم «الجرامي» العظماء، مُشيحةً بوجهٍ عَبوس عن الكاميرات، وهي تبدو في مشهد عبثي تُكرّسه قبعتها الغريبة التي تشبه تلة أقيمت فوقها جنازة لأحد البحارة، وغطتها كومات من الورود وشباك الصيد). ولولا ذلك لحطم الركام المتساقط عظام جسده؛ لكن الحطام سقط فوقه كأنه ماكيتات ديكور في موقع تصوير سينمائي يحاكي البناء الحقيقي، غير أنه زائف.

ها هو راقدٌ وسط صور مناسَبات التخرُّج، ومعاطف الصوف القصيرة القديمة، والأدوات المعدنية الصدئة، وقصاصات الجرائد التي تحوي خبر ترقيته ليتولى منصب رئيس إدارة الرسومات الميكانيكية في المدرسة الثانوية المحلية، ومن بعدها توليه منصب مدير الإرشاد، ثم تقاعده ومزاولة عمله الجديد كتاجر ساعات أثرية وحِرَفي متخصص في تصليحها.

وسط الركام استطاع تمييز قطع النحاس التي زيّنت ساعات كان يعمل على تصليحها. نظر إلى الحفرة التي تَسبب

بها الانهيار، ليرى الجذوع الخشبية المُهشّمة وقد أفلتت من مكانها، حيث ثبّتها لتدعيم سطح المنزل، ورأى مواسير السباكة الفضية بعدما تقوّضت وتفككت خيوط العزل الملتفة حولها لتربط بعضها ببعض. أحكم أحد أحفاده (لا يذكر أيّهُم) ربط خيوط العزل الكهربي حول تلك المواسير منذ سنوات، والآن لاحظ أن ربطتين أو ثلاثًا منها قد تفككت وتعلقت في الهواء.

انهار سطح البيت وأمطر سيلًا من الأخشاب والمسامير وكتل القطران والألواح الخشبية والخيوط العازلة. وبدت السماء غائمة يخترق زُرقتها موكب من السحب الريانة التي تنبئ بعاصفة رعدية.

كان لجورج اعتقاد راسخ -برغم عدم منطقيته- بأن البقاء في الخارج هو أفضل شيء يفعله المرء حين يصيبه المرض.. تراكمت السحب في السماء، وتوقف موكبها عن المسير للحظات، ثم انهمر المطر فجأة فوق رأسه. إلى أن عادت زرقة السماء للظهور مرة أخرى بعدما عصرت خلاصة غيومها فوق تلك الكومة الأسمنتية المنهارة. ثم بدأت تسقط عليه النجوم متلألئة من حوله كأنها خيوط زينة نَفَضَتها الجنة عن يديها وألقتها عليه في الأرض.

في النهاية، لم يعد جورج قادرًا على تحديد تفاصيل الدمار

الذي وقع في منتصفه حتى صار مدفونًا في قلب الحطام الأسود المغبر.

قبل نحو سبعين عامًا من وفاة جورج، قاد والده **هاورد آرون كروسبي** عربة خشبية ليكسب رزقه. صنع هاورد عربته الخشبية من دولاب ملابس وضعه على لوحين متعامدين وثبّت عليهما مَحاور العجلات المصنوعة من الأطر الخشبية الدوّارة. كان البيت يعج بعشرات الدواليب الخشبية، التي زُيّنت ضُلَفُها بمقابض نحاسية لامعة على شكل حلقات، وكانت تُفتح بمجرد أن تُسحب المقابض بسبابة معقوفة.. بعض الدواليب كانت تحتوي على فُرش، وزيت الخشب، وجوارب من النايلون، ومسحوق غسيل الأسنان، وأيضًا شفرات حلاقة. وأخرى خُصصت لتخزين أربطة الأحذية الجلدية والأحذية ذات الرقبة، وعصيّ ورؤوس المسَّاحات المصنوعة من القماش.. وفي دولاب سريّ احتفظ الأب بأربع قنينات من خمر الجين.

كان الأب أثناء سيره بالعربة، يرتاد الطرق الخلفية غالبًا -تلك الطرق المتربة غير الممهّدة- عبر الغابة الوعرة إلى المساكن الموجودة وسط الحياة البرية، مثل الأكواخ المشيدة بين أكمات الأشجار الضخمة. حيث تقف على باب خشبي متهالك لأحد هذه الأكواخ امرأة ذات رداء ريفي

بسيط، وقد سحبت شعرها وأحكمت ربطه خلف رأسها، تزمّ شفتيها كأنها تبتسم (لكنها في الحقيقة لا تبتسم)، تُشيح في وجهه ببندقية صيد صغيرة وتقول:

حسنًا! هذا أنت يا هاورد! لا بأس، نعم، أظن أنني أحتاج لشراء أحد دلائك الصفيحية.

في الصيف، اعتاد أن يدخن عشبة «الخلنج»، وهو يغني «هناكمن يهز مركب أحلامي»، بينما يراقب - في الوقت نفسه- فراشات المونارك القادمة من جهة الحدود المكسيكية، ويغازل النار الموقدة والشعلات المتصاعدة منها (فقد كان يتخيل نفسه شاعرًا). وكان فصلا الربيع والخريف يتسمان بوفرة العمل. بالنسبة للخريف كان سكان الغابة الخلفية قد اعتادوا تخزين الأغراض استعداد للشتاء؛ ولذا كان يشحن الكثير من البضائع ويأخذها إلى مكان يفترشه وسط أشجار القيقب، ويُنزل بضاعته عن العربة ويعرضها للبيع. أما في الربيع، وحين تصبح الطرق ممهدة ليطرقها بعربته في أول جولة من الموسم؛ يكون مخزون السكان من الأغراض الأساسية قد نضب بالفعل منذ أسابيع. عندئذ كانوا يتدافعون نحو العربة كالسائرين نيامًا؛ لكن بعيون لامعة ملؤها النهم. أحيانًا يعود من الغابة وقد طلب منه أحدهم أن يجلب في الجولة القادمة توابيت لطفل أو امرأة مكفّنة برداء

من الخيش وقد تيبس جسدها حيث ترقد تحت سقيفة خشبية.

أجاد الأب حرفة الصناعة اليدوية المعدنية، ومنها صناعة الأواني المصبوبة من الصفيح والحديد. استطاع أن يُذيب سبائك اللحام ويصبها في خزانات الماء الفخارية، ويدمج الزئبق الفضي في أطر اللوحات المنسوجة. ومن حين لآخر كان يطرق الأواني ليعيدها مسطحة ويعالج طنين صفارة من الصفيح، وغيرها من الأمور البسيطة التي تجري تحت سقف الغابة الشمالية. وقد اعتبره السكان مُصلح صفائح، نحَّاس، أو بالأحرى قارع أدوات نحاسية.

وقد أجاد **جورج** أعمال الحفر وصب قواعد الأساسات الأسمنتية لتشييد بناء سكني، وكذلك نَشْر جذوع الأشجار وتركيب الألواح الخشبية. كما أتقن توصيل الكهرباء للغرف، ومد مواسير الصرف، وتعليق أسقف الجص، وتركيب الأرضيات، وتبطين السطح بالحصى. وتمكن من رصّ طوب الجدران، وتثبيت النوافذ وطلاء أطر ألواح الزجاج.

لكنه من ناحية أخرى لم يتقن الإمساك بالكرة أو قذفها، ولم يقوَ على السير لمسافة ميل؛ فقد كره ممارسة الرياضة، وحرص منذ تقاعده في سن الستين على ألا يرتفع معدل نبض قلبه عن المعدل الطبيعي بقدر الإمكان؛ إلا لو أرغم

نفسه على تحمل مشقة الوصول لبحيرة صيد السلمون. وربما كان امتناعه عن التريض تمامًا السبب في اكتشاف إصابته بسرطان في الفخذ حين خضع لأول رسم أشعة في حياته؛ وذلك حين تورّمت ساقاه حتى صارتا أشبه بكلبي بحر نافقين على أحد الشواطئ، ثم تخشبتا تمامًا.

وقبل أن يصبح طريح الفراش، اعتاد أن يسير كجندي بُترت أحد أطرافه في حرب سبقت عصر الأطراف الصناعية.. وقتها ترنح في مشيته كما لو كان سائرًا على ساقين خشبيتين مثبتتين بدبابيس حديدية في خصره. لمست زوجته ساقيه في الفراش ليلتها بعد أن مررت يدها من خلال بنطلون البيجاما، ذكّرها ملمسهما بشجر البلوط والقيقب. بعدها حاولت أن تُلهي نفسها بالتفكير في شيء آخر غير ساقيه كي لا تتخيل نفسها وقد أخذتهما إلى ورشة زوجها في قبو المنزل، لتبدأ في سنفرتهما وتلميعهما وصبغهما بالفرشاة، وكأنهما قطعتا أثاث خشبية. الأفكار جعلتها تتخيل زوجها وقد تحوّل إلى مائدة، فأفلتت منها شخرة قوية أخفت بها ضحكة عالية؛ لكنها شعرت بالذنب لدرجة أنها بكت بانفعال.

تعلّم **هاورد** الصبر الممتزج بالعزيمة، والمنطق من ذلك العناد الذي كان يراه في بعض النساء الريفيات ممن تعامل

معهن أثناء جولاته اليومية، حين أوقفت شركة الصابون خط إنتاجها لمادة التنظيف المستخدمة استعدادًا لتوزيع منتج بتركيبة جديدة، وقامت بتغيير تصميم صندوق توزيع الصابون.. اضطر أن يتحمّل جدالهن في أمور مُسَلّم بها، وما كان ليفعل لولا أن زبائنه في النهاية يدفعون ما عليهم رغم مقاومتهم.

- أين الصابون؟

- هذا هو الصابون

- الصندوق مختلف

- بالفعل، هم غيّروه

- وما المشكلة في الصندوق القديم؟

- لا شيء

- ولماذا غيّروا شكله؟

- لا شيء

- وما السبب الذي قد يضطرهم لتغييره؟

- لأن الصابون أفضل

- الصابون مختلف؟

- أفضل

- لم يكن هناك ما يسوء الصابون القديم

- طبعًا، لكنه الآن أفضل

- لم يكن الصابون القديم سيئًا فكيف جعلوه أفضل؟

- أصبح ينظف بدرجة أفضل

- كان ينظف جيدًا

- الجديد ينظف أفضل وأسرع

- حسنًا! أريد صندوق من النوع القديم

- هذا هو الصابون القديم الآن

- ألا أستطيع أن أحصل على القديم كما كان

- هذا هو القديم، أضمن لكِ ذلك

- لكنني لا أرغب في تجربة صابون جديد

-هذا ليس صابون جديد

- كما ترى سيد كروسبي، كما ترى

- حسنا سيدتي! أريد بنسًا آخر

- بنس آخر؟ من أجل ماذا؟

- لقد زاد سعر الصابون بنسًا لأنه الآن أفضل

- هل أنا مضطرة لدفع بنس زائد ثمنًا للصابون؛ لمجرد أن صندوقه أصبح أزرق؟ إذن أريد صندوق من الصابون القديم المعتاد بدلًا منه.

اشترى **جورج** ساعة منبه معطّلة في مزاد لبيع المقتنيات المستعملة، وقد أعطاه المالك معها نسخة مجانية مصورة من كتيب إرشادي لتصليح الساعات يرجع إصداره إلى القرن الثامن عشر. ومن يومها بدأ ينخر أمعاء المنبهات القديمة. وباعتباره متخصصًا في تصليح الآلات، كان لديه دراية بنِسَب السرعة والمكابس والتروس والفيزياء ومعدلات قوة المواد. وكرجل أمريكي جاء من الشاطئ الشمالي حيث مَزارع تربية سلالات الخيول، فقد عرف أين يحفر ليحصل على كنوز المال. ذلك الرجل يغفو ويحلم بماكينات نسج الصوف ومقالع الحجارة وشرائط الأسعار في البورصة ورحلات صيد الثعالب. لقد وجد المصرفيين لا يبخلون بأموالهم من أجل إصلاح الساعات الأثرية التي توارثوها عبر الأجيال بحيث تظل تعمل وتخبر عن الوقت. وقد أتقن استبدال السن البالي في الترس الذي يُصدر صوت الدقات بيده عن طريق الخطوات التالية:

ضع الساعة منكفئة على وجهها، ثم فك مسامير قرص

غطائها الخلفي، أو خلخل فقط القرص عن صندوق الماكينة المصنوع من شجر السيدار أو من قشر الجوز، أزل التراب الذي تراكم من الخيوط البالية القديمة المصنوعة من فتيل الشجر وانفضها عن الأطر، ارفع الغطاء الخلفي كما لو أنك تفتح صندوق كنز، قرّب مصباح الجواهرجي ذي الذراع الطويل أكثرَ من الساعة بحيث يتجاوز الضوء كتفك، افحص النحاس الذي تراكم عليه السواد والتروس التي تجمدت من كتل الزيت والتراب. انظر في التمويجات التي أصابت المعدن المطروق واكتست باللون الأزرق والأخضر والبنفسجي. أدخل إصبعك في قلب الساعة ولف به عجلة المَخرج (كل جزء في الماكينة له اسم مناسب تمامًا لعمله- مخرج هنا بمعنى: الطرف النهائي للماكينة، الموضع الذي تتسرب منه الطاقة، ثم تنطلق وتتحول إلى دقات الزمن). احشر أنفك أكثر، ستجد أن المعدن صار له رائحة حمض التانيك. اقرأ الأسماء المنحوتة على الأجزاء الداخلية: عِذرا بلوكسام- ١٧٩٤، جيو إي تيجز- ١٨٣٢، توث فلاتشبارت- ١٩١٢.. أزل الأجزاء المُسوَدَّة من صندوق الماكينة، ضعها في وعاء به مادة أمونيا، أخرج الأجزاء وستشعر بحرقان في أنفك وستدمع عيناك، ثم سترى لمعانها من جديد كالنجوم حتى يخترق ضوؤها بصرك من خلال الدموع. برّد السِّن، اثقب الجِلبة العازلة، اضغط على رؤوس الزنبرك، أصلحت عطل

الساعة. الآن أضف اسمك إلى الماكينة.

تن تن تن، الصوت الكامن في المعدن. دقات رنين الأواني والدلاء. لقد كان نفس الرنين الذي يدق في أذنيْ هاورد كروسبي. ذاك الرنين الذي أتى من بعيد ثم صار ملاصقًا له حتى أصبح قابعًا في رأسه. تطوحت رأسه كأنها جرس يدق ويتأرجح. شعر بالبرد على أطراف أصابع قدميه، وبجسده يمتطي موجات رنين النحاس التي انبعثت في أنحائه، حتى قرقعت أسنانه من أثر اصطدام فكيه، ووهنت ركبتاه فحاول أن يجمع شتات نفسه كي لا يتداعى. كانت تلك هي الهالة الروحانية التي تحيط به. تيار البرودة الكيميائي الكهربي الذي أحاط به في كل مرة فاجأته فيه التشنجات وأسقطته أرضًا. فقد كان مصابًا بالصرع. كانت زوجته كلما انتابته النوبة، تزيح مقاعد وطاولات المطبخ جانبًا، وتُرقده في منتصف أرضيته.

زوجته هي **كاثلين**، ولقبها قبل الزواج بلاك، تنتمي إلى عائلة بلاك العريقة من مقاطعة كيبيك، لكنها تنحدر من الفرع الفقير المتواضع. كانت تأخذ عصا خشبية من الصنوبر وتلف حولها منديلًا وتدسها بين فكيه كي لا يبتلع أو يمضغ لسانه. أما لو فاجأتها النوبة، عندئذٍ لا تجد الوقت الكافي لكي تلف العصا بالمنديل؛ بل تضعها بسرعة بين أسنانه،

وحين يفيق يجد فمه مليئًا بنشارة الخشب، ويشعر بمذاق عصارة الصنوبر على لسانه، ويدق رأسه كأنه برطمان مملوء بالمفاتيح القديمة والمسامير الصدئة.

ولكي تُعيدَ تركيب الساعة بعدما فككتَها وانتهيتَ من إصلاحها، ضع قطعة من القماش الناعم -يفضل عدة طبقات من الشامواه - بين الماكينة والغطاء الخلفي. وذلك بعد أن تعيد كل ترس بعجلته ومحوره في فتحته المخصصة له. ابدأ بالتروس الكبيرة وضعها في صمامتها وأحكم لفها بداخلها تمامًا كما تظهر في اسكتشات دافنشي العبقرية عن الأشكال الهندسية وبالتحديد عن الأقماع. ثم انتقل إلى التروس الأصغر تدريجيا، واشبك سنّ كلٍّ منها في طوق سرعات التالي. وهكذا إلى أن تكتمل عجلات التروس في صف إصدار التكات، وعجلات المخرج في صف الحركة وفي أماكنها المخصصة. الآن يمكن لصانع الساعات النظر إلى آلته السحرية ووجهها الزجاجي الكاشف، ويراقب سرعاتها بينما تقفز كأنها لعبة ميكانيكية خيالية.

لا يمكن تتبع زمن الكون بتلك السهولة!

أقصى ما يمكن أن تفعله مثل تلك الآلة الخادعة هو تتبع حركة الأشباح الجامحين وهم يقضون أوقاتًا ممتعة.

أمسك الغطاء الخلفي أولًا بإحدى يديك، وضعه بحرص

فوق المحاور المثبتة لأعلى على رؤوس الزنبرك الأساسية وتلك الخاصة بالدقات. هذا الجزء هو الأكبر والأسهل في تركيبه من بين الأجزاء المتنوعة الأخرى. بعد هذه الخطوة يستطيع صانع الساعات رفع طبق الماكينة بمظلته الأفقية إلى مستوى نظره كي يرى فيما بينهما محتويات الماكينة المفككة بوضوح، محافظًا على التصاق الطبق بمظلته بقدر الإمكان بحيث يضغطهما إلى بعضهما البعض؛ لكن بخفة ودون وضع حِمل إصبعيه عليهما كي لا يحطم أطراف المحاور الدقيقة غير المتساوية في الطول؛ على أن يمسكهما في الوقت نفسه بإحكام بحيث لا يعطي مجالًا للماكينة أن تفلت من بين إصبعيه وتفكّك نفسها تلقائيًا مرة أخرى إلى أجزائها المتعددة بعد أن أوشك العمل أن ينتهي؛ خاصة أن تلك الأجزاء قد تتناثر حول الساعاتي وتختفي في مواضع مملوءة بالتراب في أنحاء ورشته؛ مما يسبب مزيدًا من السباب واللعنات.

إذا فشل الساعاتي الصبور في إتمام مهمته تلك، واستطاع بعد تركيب عجلة الترس الأكبر في مكانها الصحيح، أن يسمع صوتًا أقرب إلى الاحتكاك من صوت رنين النحاس المعتاد؛ فسيكون عليه أن يعيد المحاولة بخطواتها مرة أخرى بمثابرة وهدوء إلى أن تنتهي الفوضى وتعود الأمور إلى نصابها.

تتّسم آليةُ إعادة تنظيم الحركة في الساعات التي لا تحتوي على منظومة تروس للحركة، فقط بالبساطة. أمّا الماكينات الأكثر تعقيدًا مثل تلك التي تقوم بوظائف متعددة منها محاكاة دورة بزوغ القمر أو إضافة النموذج السخيف الزائف للنباتات؛ فتلك أنماط تستوجب لصنعها خبرةً هائلة وإتقانًا بالغًا.

(سمع المؤلف عن ساعة حائط وُجدت كما يُعتقَد في بوهيميا الشرقية تحتوي على نموذج لشجرة بلوط محفور حول المينا حفرًا بارزًا بالحديد والنحاس. وحين تتغير دورة الفصول في موطنها، تتحول ألف من أوراق الشجرة إلى اللون النحاسي الأصفر، وقد صُنعت كل ورقة على هيئة خيط رفيع دوّار يشبه الشعرة من «الإناميل»، وله خاصية التحوّل اللوني تدريجيًّا وبدءًا من لون الإناميل الأخضر، وانتهاءً بالأحمر اللامع، وعن طريق آليات مذهلة أضيفت إلى صندوق الساعة الذي صُمم على هيئة أعمدة تقول الأسطورة إنها تحمل الكرة الأرضية؛ ظهرت فروع الشجرة تُسقط أوراقها بانسيابية على طول الخيط الحلزوني، ثم تتبدد لتختفي في الجزء السفلي من وجه الساعة. ولو وُجدت تلك الآلة بالفعل، لما كان السيد نيوتن نفسه فضّل الجلوس تحت شجرة أكثر إبهارًا من تلك الشجرة).

(من كتاب الساعاتي الحكيم/ ريف كينر دافينبورت، ١٧٨)

تذكر **جورج** كروسبي كثيرًا من الأشياء قبيل موته؛ ولكنها تداعت في ذاكرته بشكل فوضوي صعب عليه احتواؤه. فقد نظر إلى شريط حياته وتأمّل حصاد عمره كما تخيل دائمًا أنه آخر ما يتبقى للإنسان حين يواجه نهايته. فكان الأمرُ بالنسبة له كزلزال هزّ الأرض تحت قدميه، وشاهد حياته تتحوّل إلى قطع موزاييك تتطاير من حوله وتلف في دوامة، ثم تعيد تشكيل نفسها في بورتريهات جديدة، بألوان تملأ دائمًا مساحات مألوفة، باستخدام عناصر معلومة ووحدات من جزيئات دقيقة، وتدفقات حميمة؛ إلا أن تلك اللوحات الجديدة قد تخلّصت تمامًا من سيطرته واستقلت عن إرادته، وكلما أراد أن يقيم من خلالها نفسه، أظهرت له نفْسًا أخرى مختلفة في كل مرة غير تلك التي يعرفها.

*****

قبل مئة وثمانٍ وستين ساعة من وفاته، تسلّل إلى نافذة القبو داخل كنيسة ويست كوف ميثوديست ليقرع جرسها في ليلة عيد الهالويين. جلس في القبو منتظرًا والده إلى أن يأتي كي يجلده على فعلته؛ لكن والده ضحك من قلبه ولطشه على فخذه بدلًا من مؤخرته لأنه قام بحشو جيوب

بنطاله الخلفية بجرائد ساترداي إيفنينج بوستس القديمة. جلس على مائدة العشاء صامتًا، يخشى النظر إلى أمه التي أجبرتهم على البقاء في مقاعدهم أمام الطعام البارد في انتظار أبيه الذي لم يحضر إلى المنزل حتى الحادية عشرة ليلًا.

تزوج وانتقل إلى مكان آخر. تنقل في معتقده من الكنيسة الميثودية المنهجية إلى الأبرشية، ثم أخيرًا انتمى إلى الكنيسة التوحيدية. عمل في رسم الآلات ودرَّس الرسومات الميكانيكية. أصيب بجلطات في القلب لكنه تعافى منها. وقبل افتتاح الطريق السريع وتمهيده، أسرع في القيادة عليه مع زملائه من كلية الهندسة. درَّس الرياضيات وحصل على درجة الماجستير في التعليم، كما عمل مستشارًا إرشاديًّا في المدرسة الثانوية. في كل صيف، عاد إلى الشمال ليصطاد بالطريقة التقليدية القديمة مع أصدقائه القدامى المقربين، ومن بينهم أطباء وشرطيون وأساتذة موسيقى. وذات يوم اشترى ساعة بها عطب من مزاد أثريات، ومعها نسخة من كتيب إرشادي لإصلاح الساعات صدر في القرن الثامن عشر. تقاعد وسافر في رحلات سياحية إلى قارات آسيا وأوروبا وإفريقيا. أصلح ساعات على مدى ثلاثين عامًا، ودلل أحفاده، وأصيب بداء باركنسون(2) ومرض السكري والسرطان، ثم

رقد في سرير طبي بمنتصف غرفة المعيشة بمنزله، حيث مدت العائلة طاولة الطعام بالقرب منه، وأوصلوا بها الجزأين الإضافيين المطويين اللذين تم صُنعا للاستعانة بهما في أوقات ولائم الأعياد.

طالما منع **جورج** خياله من استرجاع صور عن أبيه؛ وإنما حدث ذلك رغمًا عنه في عدة مناسبات. ذات يوم وهو منشغل بإصلاح ساعة، وبينما ينهمك في دهان زنبرك جديد مثبت في أسطوانته، قفز الزنبرك من محوره وتناثرت أجزاؤه، فجرح يديه. وفي مثل تلك الحوادث قد يتطور الأمر حين ينفجر الزنبرك، إلى تحطم باقي أجزاء الماكينة. يومها رأى طيف أبيه مُلقىً على أرضية الغرفة، يرفس بقدميه المقاعد، ويشد السجاد بقوة، فتسقط المصابيح عن الطاولات، وتصطدم رأسه مرارًا بالأرضية، ضاغطًا بأسنانه على عصًا خشبية، أو ربما على أصابع جورج.

عاشت والدة **جورج** معه ومع أسرته إلى أن توفيت. في أوقات معينة -وغالبًا في أوقات الجلوس على المائدة- كانت تستدعي ذكرى أبيه وتسترجع كم كان زوجها رجلًا طائشًا؛ وربما ارتبطت ذكراه لديها بأوقات التجمع على الطعام؛ لأنه طالما احتقرها وتجاهل انتظارها له في أوقات الوجبات، بينما تجلس هي لتفكر كيف يمكن أن تلهيه عما يشغله عن

الطعام. أثناء الفطور كانت تضع ملعقة الشوفان في فمها ثم تخرجها من بين أسنانها وهي تلعق ما تبقى بها، ثم تقول فجأة «شاعر ماذا! لقد كان سخيفًا وغبيًّا، ثرثارًا ومتشنجًا، يترنح ويسقط فيثير الفوضى كلما فاجأته النوبة وما يلحق بها».. لكن جورج غفر لأمه تلك الضغينة التي ملأت قلبها، وكلما تخيل الألم الذي تجتره ذاكرتها في تلك اللحظات؛ غرق في دموعه ثم سيطر على نفسه وأنزل جريدة الصباح التي يتصفحها كي يستطيع الاقتراب منها ثم ينحني ليقبل حاجبها المدهون بزيت الكافور، فترد على تلك اللفتة بقولها: «لا تحاول أن تجعلني أشعر شعورًا أفضل، فلقد ترك لي هذا الرجل شبحًا أسود سيظل يحوم حول ذكرياتي للأبد.. ذاك الأحمق الملعون». وبينما أراحت تلك الكلمات جورج، أراحتها الصلوات المتواصلة وذكّرتها بأن تلك الفترة من حياتها قد انتهت.

لما رقد جورج على فراش موته، شعر بأنه يرغب في رؤية والده مرة أخرى، وفي تخيل هيئته، وكلما حاول تركيز أفكاره في الرجوع إلى الماضي والابتعاد عن الحاضر، وحاول التعمّق في ذكرياته والابتعاد عن الحاضر والألم والضوضاء؛ شعر بشخص ما يقلّبه على الفراش من جهة لأخرى كي يبدل الملاءات، وحالُ الدم المتخثر الداكن الذي تكوّن من سموم تسربت إلى كليتيه بعد انسدادهما بكتل

السرطان دون التركيز في أي شيء آخر سوى جسده الواهن المريض وذهنه المشوش.

في ظهيرة يوم ما، تحديدًا في فصل الربيع الذي سبق وفاته؛ قرر جورج حين تمكن منه المرض، أن يقوم بتسجيل شريط يهدي فيه للآخرين ذكريات ومواقف طريفة مرت في حياته. استغل فرصة خروج زوجته للتسوق ليخرج المُسجِّل ويضعه على مكتبه حيث كان يعمل على تصليح الساعات في قبو منزله. فتح الباب الفاصل بين ورشته ومحله لبيع الأدوات. هناك في المحل بين مكبس الحفر ومخرطة المعادن يوجد موقد لإشعال النار. ضغط بعض الجرائد القديمة وألقى بها في الموقد؛ مضيفًا إليها ثلاث قطع من جذوع الشجر أخذها من كومة الجذوع المقطعة حيث وضعها في ركن ناءٍ من المحل، قريبًا من الباب المؤدي إلى الحاجز الفولاذي الخارجي. أشعل نارًا وأضاف إليها زيت الاشتعال في محاولة لتدفئة الجو في حائط القبو الأسمنتي قارص البرودة. بعدها عاد إلى مكتبه داخل الورشة. كان هناك ميكروفون رخيص ملحق بالمُسجل، لكنه يفلت من المشبك الذي يحيط به ويثبته بالمسجل. أفلت المشبك لأنه خفيف إلى درجة كبيرة؛ مما جعل سلكه الذي يصل الميكروفون بالمسجل يخرج عن مكانه ويلتف في اتجاه معاكس. حاول جورج أن يمد السلك بشكل مستقيم إلا أن الميكروفون

استمر في الإفلات؛ فاضطر أن يسنده على حافة المسجل العلوية. وجد مفاتيح المسجل عالقة ومتحجرة، وتحتاج إلى بعض الجهد لتحريكها لأسفل إلى أن تسقط في مجراها. قرأ الاختصارات الحرفية المشفرة على كل زر، وقام بتجربة الأزرار ليحدد الزرين اللذين يعملان معًا ليبدأ التسجيل. وحين تأكد منهما، قام بتشغيلهما معًا. على شريط التسجيل ملصق وردي باهت كُتب عليه «منوعات إيرلي بلوز- حقوق الملكية ترجع إلى هال بروتون، جو كريك، بنسلفانيا». تذكر جورج حين اشترى مع زوجته هذا الشريط أثناء إحدى الدورات التدريبية بكلية إيلدرهوسل التي تلقياها في الصيف منذ سنوات.

بمجرد أن ضغط على زر (تسجيل)، سمع في الخارج صوتًا نحيلًا وبعيدًا لرجل ما كأنه قادم من أعماق الجحيم، وبدلًا من أن يوقف التسجيل ليقوم بمسحه ويبدأ من جديد؛ رأى أن صوت الرجل الذي وقف يعرض شكواه -على ما يبدو- هو أفضل مقدمة يبدأ بها تسجيله. مال باتجاه الميكروفون وقد عقد ذراعيه وأسندهما على حافة المكتب، وبدأ كأنه متهيئ للإجابة عن أسلة ستلقيها عليه هيئة محكمة. بدأ يتحدث بنبرة رسمية:

«اسمي جورج واشنطن كروسبي. ولدت في ويست

كوف، ولاية ميين، عام ١٩١٥. انتقلت إلى إينون بمقاطعة ماساشوسيتس عام ١٩٣٦»... إلخ. وبعد أن انتهى من تسجيل بياناته الإحصائية، وجد أنه لا يتذكر سوى الأحداث الهزلية، وكذلك المواقف التي تنطوي على أمور فاحشة، معظمها يروي الأفعال الجريئة الحمقاء التي اقترفها بعد تجرع كميات وفيرة من الويسكي أثناء رحلة صيد. وتدور أغلبها حول الهرب بصناديق السلمون من حارس ما يطاردهم لأنهم لا يحملون ترخيصًا للصيد، أو حين أتى أحد الأطباء بمسدس وأخرجه في الغابة ثم راح يغني كلمات أغاني خارجة، مثل أغنية «اقتربي يا أمي»، و«من الأفضل لو تبقى يقظًا»، وغير ذلك. ولكن بعد رواية بعض القصص التي تُعد على أصابع اليد الواحدة، بدأ يتحدث عن أبيه وأمه، وعن أخيه جون وأخواته، ثم ذكر الدراسة المسائية التي قام بها للحصول على درجته الجامعية، ثم استطرد في الحديث عن تجربته كأب. تحدّث عن الجليد الأزرق وبراميل التفاح وتقطيع الأخشاب المجمدة الهشة والرنين الذي تصدره عند بترها. تَحدّث عن مشاعر الشخص حين يصبح جَدًّا للمرة الأولى، وعما سيتركه وراءه في الدنيا إذا حان أجله.

حين نفدت المساحة المتاحة على الشريط للتسجيل بعد مرور ساعة ونصف بعدما قلبه على الوجه الآخر بحركة عفوية لا إرادية، فصل زر التسجيل تلقائيًّا مُصدِرًا طقطقة

عالية، بينما علا صوت جورج منتحبًا وآسفًا على اضطراره مغادرة هذا العالم المغمور بالضوء والمفعم بالأمل.

سحب الشريط من المسجل وهو لا يزال مغمورًا بانفعالاته، ثم قلبه على الوجه الأول ووضعه في الكاسيت من جديد لينزلق في درجه، ثم ضغط زر (تشغيل)، معتقدًا أنه باستماعه إلى ما سجله سيحافظ على حالة الحزن النقي الخالص التي اختبرها في تلك اللحظة. تخيل أنه سيستمع إلى ذكرياته الآن وكأنها ذكريات رجل غريب أحبه رغم أنه لا يعرفه، وإنما أضمر له إعجابًا ومحبة؛ لكنه فوجئ بأن صوته خرج من أنف بزكمة البرد ومختنقًا، والأسوأ من ذلك أنه لم يكن رصينًا؛ حتى أنه صار أشبه بصوت صادر عن حبة قرع عسلي في مشهد ساخر دُعيث فيه للشهادة أمام مجلس الشيوخ المقدس حول بعض المسائل الدينية، ثم تلعثمتْ بدلًا من أن تعطي إجابات واضحة من هول الموقف. استمع إلى ست ثوانٍ من الشريط قبل أن يضغط الزر ليلفظه المسجل للخارج، فيمسكه ويلقمه إلى النار المشتعلة بالموقد.

نمت الأعشاب والزهور البرية بطول الطريق المترب المحفوف بالنباتات الشوكية، وارتفع طولها حتى أحاطت بعربة **هاورد** وغطتها أثناء عبوره خلالها في الغابة. قطفت الدببة الثمار من أكمات الشجر في منطقة الأخدود.

ربط هاورد صندوق المقتنيات بأحزمة من الجلد الزائف غير الأصلي. صُنع ذلك الصندوق من خشب الصنوبر لكنه صبغه كي يبدو مصنوعًا من شجر الجوز. بداخله وضع أقراط أذن رخيصة مطلية بالذهب، وسلاسل بها أحجار شبه كريمة، جميعها فوق قماش فيلفيت زائف أيضًا. اعتاد أن يأتي بهذا الصندوق ليعرض ما بداخله على الزوجات الريفيات المرهقات أثناء غياب أزواجهن في الغابة لتقطيع الأشجار أو حصد المحاصيل في الأراضي الخلفية. عرض عليهن نفس القطع التي يعرضها كل عام، ولا يتعدى عددها نصف دستة. قال لنفسه في آخر مرة: قد انتهى موسم التخزين الآن، ولا شك أن أكوام الأخشاب قد ارتفعت لديهم. وها هو البرد يضرب الغابة تحمله رياح الشمال العليا، وأبكر الليل في حلوله يومًا عن يوم، والظلام والجليد بدآ يهبطان تدريجيًّا من الشمال ويسقطان على أسطح أكواخهم الخشبية البدائية وعوارضها غير المشذبة التي تتلوى وتنثني من ثقل الظلام والجليد اللذيْن يغمران العائلات في نومهم داخل أكواخهم التي تصبح كالقبور.. هكذا يهبط عليهم الظلام والجليد، وكذلك أحيانًا يهبط الغسق الأحمر الدامي وسط الأشجار في غروب الشمس الباردة.

قال للواحدة منهن: اشترِ هذه السلسلة، وأخفيها في راحتك وخبئي يدك في ثنيات ردائك. وأظهريها لضوء النار الخافت

في قلب الليل أثناء ترقبك انهيار السقف أو انهيار إرادتك، حين يتراكم الجليد وتضطرين في منتصف الليل إلى ارتداء حذاء زوجك ذي الرقبة العالية وحمل الفأس لتضربي سطح بحيرة تجمدت كي تحطمي الثلج. ستلمع شفرة الفأس من أثر الضرب على قطع الجليد المحطمة متناهية الصغير حين يسقط عليها ضوء النجوم الدوارة المتجمدة. ستقفين وحيدة تحت السماء؛ ذلك الغطاء الذي يعزل الصوت عن الجنة، لأنه لا شيء يمكن أن يوقظ زوجك من نومه العميق في الكوخ ليسير عبر تلال الجليد، ويسير أو يهرول إليكِ نصف متجمد في منامته الشتوية المكونة من قطعة واحدة، لينقذكِ من الغرق في تلك الحفرة التي صنعتِها بالفأس في سطح البحيرة ثم انزلقتِ بداخلها. تلك الحفرة التي تبدو في الظلام كوريد أزرق في جسد أسود تمدد إلى قاع البحيرة الموحل حيث سترقدين عاجزة عن الرؤية، وعن الشعور بشيء سوى تموجات أحدثتها أسراب أسماك ناعسة سببتِ لها قلقًا في نومها بسقوطك في ذلك الرداء الصوفي والحذاء الضخم كي تفسدي عليها استمتاعها بأحلامها الكسولة الشتوية ببحور الأزمنة الغابرة. ربما لن تشعري بهذه الأسماك من الأصل وأنت تحاولين المقاومة في تلك الملابس التي تترك على جلدك ملمس القطران البارد؛ لكنك ستتطلعين إلى رؤية قشورها الفضية اللامعة المتشابكة تمر أمامك، بينما

يستسلم جسدك في هدوء وبطء للغرق بعينين مفتوحتين، ثم تغلفين جفونًا صار ملمسها لزجًا شائكًا كقشور السمك، وتشعرين بالدماء من خلفها في حدقتيك صارت باردة. عندئذ تفقدين الرغبة في الاهتمام بأي شيء سوى الرقود أخيرًا. ولن ترغبي أخيرًا في أي شيء سوى الاستماع إلى صوت الدندنة المفاجئ الجديد البسيط المنساب بين عينيكِ. الجليد المتراكم أكثر قوة وكثافة من أن يتحطم إذا ضُرب بالفأس، فلا تحاولي أن تحطميه، يستحيل أن تحطميه. ما عليكِ إلا أن تشتري الذهب وترتديه وتدفئيه بحرارة جلدك، وتتركيه يتدلى ليصل إلى حِجرِك وأنتِ تجلسين أمام النار، أو لن يكون أمامك سوى مراقبة زوجك المرهق جالسًا يمضغ علكة، أو تطيلين النظر في تشققات جلد يديك المتقشف.

ولا امرأة اشترت قطعة مجوهرات واحدة. قد تحمل إحداهن سلسلة ما من مكانها وتدعكها بأصابعها وتكتفي بالرد عليه حين يقول:

- إنها قطعة جميلة!

- بالفعل هي كذلك

أحيانًا يرى وجه إحداهن يتشنّج لجزء من الثانية بعد أن يحرك لون الذهب في نفسها رغبة شبه منسية في امتلاكه، ويثير بقايا الحلم البعيد المرتبط بالزواج. وقد تلهث لثانية

كأنها تحاول الوصول إلى شيء معلق في مسمار على ارتفاع لا تطاله. في النهاية تعيد الحلية التي عرضها عليها:

- لا لا، لا أظن يا هاورد

يعيد صندوق الحُلي إلى دُرجِهِ من جديد، ويلف هاورد قائمي عربته لكي يدفعها ويعاود طريقه عبر الغابة؛ بينما القرويون من خلفه يسارعون بالاختباء في أكواخهم خوفًا من برد الشتاء.

كولين، الوكيل التجاري المحلي الذي يمد هاورد ببضائعه، كان يعمل في التجارة غير المشروعة. يجلس كل شهر على طاولة في الغرفة الخلفية بمتجر ساندرز، ويغالط في الحساب. يوزع فواتير هاورد الشهرية أمامه ويميل بجسده ليدقق النظر في كل واحدة من خلال دخان سيجارته المتدلية دائمًا من فمه. في تلك اللحظة يحدّث هاورد نفسه دائمًا بأن وكيله يشبه مقامرًا جالسًا على طاولة بوكر يقلب الأوراق بين يديه أو يقوم بخدعة سحرية. يحدّق في الإيصالات، ويردد: «فقط خمسة صناديق من الغسول. لا بد أن يكونوا ستة صناديق حتى يمكنك الحصول على التخفيض. عشرة رؤوس مسّاحات من القطن. جيد؛ لكنني رفعت سعرها. تحتاج أن تبيع دستة منها بحد أدنى. أنت تطلب النيكل بكميات أقل من ذي قبل. ما حجم مبيعات ذلك

الصابون الجديد؟ لا يهمني إذا كان من الصعب إقناع أولئك النساء اللعينات القاطنات في الغابة الخلفية. أنت بائع، ماذا بربك تفعل هناك إذن؟ تشم عبير الورود؟ اللعنة، كروسبي، لماذا لم تَبِعْ صناديق التبريد والغسالات تلك؟ لا يهمني ما إذا كانوا عاجزين عن فهم حساب الأقساط. البيع بالتقسيط هو مستقبل البيع. إنه الكأس المقدس لأساليب البيع الحديثة!

يجمع كولين الفواتير بقبضته ويدسها في صندوقه. يضع يده في جيبه ويسحب حفنة من المال. يخرج منها ورقة من فئة العشر وسبع ورقات من فئة الواحد. يضع يده في الجيب الآخر، ويملأ قبضته بالفكة، ثم يخرجها ويلقي بها فوق الطاولة (يراه هاورد كأنه يلقي بزهر). يسحب بسبابته من حفنة الفكة خمسةً وسبعين سنتًا، ثم يدس ما تبقى من الحفنة مرة أخرى في جيبه بسرعة، فيبدو الأمر كأنه بالفعل يقوم بخدعة سحرية.

- وقّعْ هنا! متى ستصبح واحدًا من رجالي الاثنا عشر يا كروسبي؟

كانت تلك الجملة المقتبسة من بروس بارتون، وينهي بها كولين حديثه في كل مرة، هي الجزء الأسوأ الذي يمقته هاورد من بين كل تفاصيل هذا الاجتماع الشهري.

- مَنْ هو أعظم مسوِّق في التاريخ؟ من؟

ينظر هاورد إلى عقدة رابطة عنق كولين الرخيصة، ويبتسم في محاولة ليخفي امتعاضه، لكنه لا يجيب الأسئلة في ذات الوقت.

- بربك يا كروسبي، ألم تقرأ الكتاب؟ لقد أعطيتك الكتاب بسعره.

- يطلق هاورد زفرة ويجيب:

- يسوع

- بالضبط!

ينهض من مقعده وينحني للأمام دون أن يقف، يضرب بقبضته على الطاولة ويشير بأصبعه نحو السماء (نحو أحذية الجليد المتدلية فوق جدران المتجر)

- إنه هو! يسوع! «أشهر ضيف عشاء في تاريخ أورشليم. انتقى اثنا عشر رجلًا من قاع عالم التجارة، وحوّلهم إلى منظمة كاملة غزا بها العالم».

بعد أن أنهى اقتباسه، عاد ليسأل هاورد:

- متى ستصبح واحدًا من رجالي الاثني عشر يا كروسبي؟ قل لي إن لم تكن لديك المهارة للبيع؟ إن لم يكن لديك الشغف للبيع؟

قبل وفاته بمئة واثنتين وثلاثين ساعة، استيقظ **جورج** من ركام انهيار العالم على سواد الليل وصمته الذي لم يستوعبه بعدما أفاق من كوابيسه. أضاء الغرفة مصباحٌ صغير من القصدير موضوع على إحدى الطاولات الصغيرة بالقرب من الأريكة الموازية للسرير الطبي. جلس أحد أحفاده على طرف الأريكة البعيد مقتربًا من الضوء ومنحنيًا تجاهه، يقرأ كتابًا. ناداه جورج:

- تشارلي

- جدي

وضَع الكتاب ذي الغلاف المقوى على حجره

- لماذا كل هذا الهدوء اللعين؟

- إن الوقت متأخر

- فعلًا؟ ولو! فالهدوء قاتل

أدار جورج رأسه جهة اليسار حيث مقعد الملكة «آن» ذي مسندي الذراعين بجوار موقع المدفأة الخالي من مدفأة لأنه لم يقم ببنائها على مدى ثلاثين عام، ومنذ أقلع عن تدخين الغليون. ثم أدار رأسه جهة اليمين، وتذكر فجأة خشب الغليون الموضوع على مكتبه في القبو، ثم استرجع لوهلة

شغفه بتدخين الغليون، وشعر أنه شغف بإصلاح الساعات بنفس الدرجة. وكان قد اشترى نموذجًا صناعيًّا مصغرًا لشجرة ذات فروع يحمل عليها الغليونات من ميناء نيوبيري في أحد أسواق الأغراض المستعملة التي تقام في الشارع. تساءل في سريرته وهو طريح فراشه كيف أمكن أن يتذكّر هذه الواقعة الآن. وقد اخترقت ضوضاء تلك الواقعة الهدوء الصامت من حوله حتى أنه حارَ في مصدر تلك الضوضاء بينما عاد عقله إلى يوم أن وقف أمام الطاولة الممتلئة بالخردة والتي كان من بينها تلك الشجرة في قلب سوق نيوبيري. وتذكّر هيئة البائع المحتال العجوز (كان شبيهًا ببحار متقاعد أو تاجر بحري، مرتديًا جاكيتًا إيرلنديًّا شتويًّا قصيرًا، وعلى رأسه طاقية صيد يونانية)، وكذلك نبرة صوته (كانت له لكنة أمريكية ساحلية ممزوجة بلكنتي بانجور وكيب بريتون)، والأغراض المتراصّة أمامه على الطاولة، تذكرها كلها تقريبًا، (جواريف زراعة صدئة، دمى بلا عيون، علب تبغ نحاسية فارغة، نوت موسيقية ممزعة، مقياس حراري للطهي، تمثال لكريستوفر كولومبس). تذكر حتى كيف دار الفِصال بينهما على شجرة الغليون

- كم تعطي سعرًا لهذه الشجرة أقل من عشر سنتات؟

- خمسة دولارات!

- كيف يجرؤ لص مثلك أن يتمادى إلى هذا الحد

- دولارين

- حسنًا! فلتحتفظ بها لمزيد من الوقت

- دولار وربع

- اشتريت

بعدها اشترى دستة من الغليونات من مجموعة من تجار الأثريات وعلقهم على الشجرة، وقد قرر أن يكون خبيرًا بمذاق أنواع التبغ الغالية المتنوعة، على أن يخصّص غليونًا لكل نوع من التبغ. في خلال أسبوع، كان قد دخّن مزيجًا من التبغ المحلي الرخيص في غليون قايَضَ عليه بصندوق يحتوي على أجزاء ساعات قديمة. وقد شك أن هذا الغليون مصنوع من البلاستيك وليس من الخشب حين وجد مذاق مبسمه لاذعًا. دخن العديد من الأوعية بعد ملئها بالتبغ الرخيص وهو يصلح الساعات، ثم جلس بنهاية اليوم بعد العشاء في مقعد الملكة «آن» (اشتراه بسعر زهيد من مزاد ضيعة ملكية لأن اثنين من سيقانه كانتا مكسورتين) إلى جوار موقع المدفأة ليدخّن آخر وعاء لهذا اليوم.

حين لاحظ نمو بثرة على شفته السفلى -قبل أن يتشعّب السرطان في جسده- تخلص من الغليونات والشجرة وعلب

التبغ، واستبدلها بتدخين نصف سيجار من فترة لأخرى كلما عمل في كنس أوراق الأشجار الساقطة في الجراج. وبرغم أنه لم يعاود الجلوس في مقعد الملكة «آن» منذ امتناعه عن تدخين الغليون؛ فقد ظل المقعد محتفظًا بالعلامة التي تركها على مسند الظهر من أثر الجلوس عليه، حيث احتفظت البطانة الخلفية بحفرية بحجم ظهره وكأنها ظله. لم تكن بقعة وإنما كانت تجسيدًا مصمتًا تركه ثقل جسده فوق البطانة مما جعل لون هذا الجزء المحدد داكنًا بعض الشيء؛ وبالتالي صار من الممكن ملاحظته إذا سقط عليه الضوء بدرجة ما ونظر إليه الشخص من زاوية معينة. لم يزل ذلك التجسيد المصمت معادلًا تمامًا لقياس جسمه. وها هو الآن قد صار قادرًا على مغادرة فراش المرض والجلوس في مقعده من جديد.

أسند رأسه لأعلى على مخدة وضعها خلف رقبته، ورأى أمامه عند قدم السرير طرف السجادة الفارسية الذي يغطي الأرضية أسفل السرير. ومن خلفها لمح من زاوية الجدار البعيد مائدة الطعام مُدّث وأزيلت عنها أطرافها الزائدة وطُوِيت الجوانب الإضافية، وقد أُسنِدت على ربع مساحة الحائط. في الناحية الأخرى سُلم خشبي قابل للطي ليصبح مقعدًا وملحقٌ به كرسي عكاز. فوق الطاولة التي طالما وضع فوقها صحنًا من ديكور الفاكهة الخشبية أو مزهرية

من الكريستال، وعلى الجدار عُلِّقت لوحة زيتية لمحاكاة الطبيعة صورت مشهدًا معتمًا يخلو من الضوء سوى من شمعة وحيدة وضعت على طاولة وإلى جوارها لوح تقطيع فوقه سمكة فضية ورغيف خبز داكن وقطعة جبن وبرتقالة، مع كوب زجاجي أخضر مكسور وقد تناثرت شظاياه في أرجاء المشهد. أمام السمكة ورغيف الخبز كان هناك سكين في موازاة عصًا سوداء لها طرف أبيض لا يُفهم كنهها. أحد أحفاده رآها أشبه بعصًا سحرية، وقد صدّق لأنها تُذكّر من يشاهد اللوحة بتلك العصا التي يمسكها الساحر في عيد ميلاد طفل ما ويُخرج بها الأرنب من القبعة.. أما باقي تفاصيل الصورة التي تنتمي للفن الهولندي أو الفيلمنجي، سواء كانت واضحة أو مخفية، فتؤكد أن العصا ليست مجرد مزحة. ورغم ذلك بقيت العصا لغزًا أثاره أحد أفراد العائلة كلما كان لديهم وقت فراغ في انتظار شيء ما، أو وقت تأمل واسترخاء على الأريكة، دون أن يحاول أحدهم البحث عن حقيقة الأمر.

على يمينه، وراء طاولة الطعام والمقعد المجاور لها، يوجد ممر صغير في الغرفة يؤدي إلى دولاب المعاطف، ومنه باب إلى المخزن العلوي أسفل السقف الذي لم يتم الانتهاء من بنائه. فقبل خمسين عامًا حين قام جورج ببناء المنزل، انتهى من تركيب مواسير الصرف وتوصيلات الكهرباء في تلك

الغرفة، على أن ينتهي من العمل سريعًا. على يمين الممر، مكتب عليه أدوية وفواتير وسجلات حسابات لم تُستخدم. لوحة زيتية أخرى معلقة على الجدار فوق المكتب لمركب يبحر في مياه جلوشيستر وسط عاصفة. امتلأت اللوحة بالألوان الداكنة الخضراء والزرقاء والرمادية لتُصور الجو العاصف في خطوط ملتفة حول المركب؛ بينما يظهر ضوء وسط الأمواج لا يعرف مصدره. إلى جوار الأريكة الزرقاء على يمين جورج وُضعت الطاولات الصغيرة الخاصة بها من الجهتين، وجلس عليها حفيده الذي كان ينظر إليه في تلك اللحظة بعدما وضع الكتاب في حجره.

فوق الجدار خلف الأريكة كان هناك نافذة كبيرة تطل على حديقة المنزل، ومن ورائها الشارع الذي يقع فيه. وأخفت زوجته هذا المنظر بالستائر الثقيلة التي تشبه ستائر المسرح طوال اليوم منذ أن عاد مريضًا إلى البيت كي يموت في فراشه. وتخيل جورج حفيده الجالس على الأريكة ومن خلفها الستائر كأنه جالس أمام خشبة مسرح لم يُرفع عنها الستار بعد، وأن العرض قد يبدأ في أي لحظة ثم يقف حفيده ويتقدم مادًّا ذراعيه في مفتتح عرض مسرحي للعرائس. لكن كل ما فعله الحفيد كان أن سأل جده:

- هل أنت بخير يا جدي؟

- هذا الهدوء القاتل اللعين!

حين تعذّر عليه أن يلفّ رقبته أكثر ليتفقد ما يحيط به، سكن جورج في مكانه وأطلق العنان لخياله كي يتصور التفاصيل الأخرى المحيطة به. تذكر أنه كان هناك طاولة عالية وُضع عليها تلفاز، ومقعد زوجي بلون دم الغزال، وصورة بالأبيض والأسود قديمة لزوجته في سن الثامنة عشرة، تم تلوينها يدويًّا، ووُضعت في إطار بيضاوي من خشب الورد. تذكر أيضًا ساعة جده. نظر إليها فوجدها معطلة، مثل جميع الساعات في الغرفة. الساعات على الحوائط والمنبهات على المكتب والطاولة، ماركات بانجو وفينيس وتشيلسي وأخيرًا ستيفنسون، ساعة جده المصنوعة في نوتينغهام عام ١٨٠١، والمزوّدة بشبّاك يحاكي حركة القمر ملصق على المينا الداخلية، وزوج من طيور الروبن يحاكيان عشًّا حول الأرقام الرومانية. حين بدأ تخيل التفاصيل داخل صندوق تلك الساعة، ذات اللون الداكن والخشب الجاف المجوّف والبندول الثابت على طوله؛ شعر بغصة في قلبه، وهاجمته نوبة رعب من فكرة أن تلك الساعة قد تعطلت.

حين كان أحفاده صغارًا، سألوه لو أن هناك مساحة ليختبأوا بداخل الساعة، والآن يتمنى لو يجمعهم ويخبئهم

بين ضلوعه وفي قلبه الضعيف. حينها أدرك أن الهدوء القاتل الذي يشعر به سببه غياب صوت دقات الساعات من حوله، فقد تُركوا ليتعطلوا من حوله. وقد جعله ذلك يشعر بأنه سيواجه الموت قريبًا حيث يرقد لا محالة.

- توقفت الساعات كلها عن الحركة

- جدتي قالت إنها ستتسبب في إفقادك عقلك

الحق أن زوجته قالت عن دقات الساعات إنها تقودها هي إلى الجنون؛ لدرجة أنها لم تعد تحتمل السهر بسبب كل هذا الضجيج. أمّا بعد وفاته، فقد هدّأتها أصوات حركات العقارب وأجراس الساعات. وقد احتفظت بعدد من الساعات لسنوات طويلة حيث انتقلت إلى المسكن الذي اشترته في مجمع كبار السن المتقاعدين بالمال الذي خبّأه لها، وقد وُضع جزء منه في قبو المنزل، والجزء الآخر في ستة صناديق إيداع ببنوك متعددة في نورث شور. كانت مجموعة من أفخم الساعات التي امتلكها زوجها بلغت ما يزيد على عشر، وعرضتها في أرجاء غرفة المعيشة، وواظبت على ضبطها لشهور في محاولة استحضار الأجواء التي عاشتها مع زوجها. وطالما شعرت حين كانت تستلقي في فراشها كل ليلة وحيدة، وتدق الساعات معلنة عن حلول منتصف الليل، أن شبحه يجوب غرفة المعيشة، متفقدًا كل تلك الساعات ليتأكد من أنها

جميعها متزامنة ودقيقة ومضبوطة.

- من قال إنها ستُفقدني عقلي؟ قم الآن وأعد تشغيلها!

- وعليه، نهض الشاب الذي لم يعد جده قادرًا على تذكر اسمه، ومر بكل ساعة على حدة، وأعاد ضبطها وتشغيلها.

- لكنني لن أشغل زر صوت الدقات. ستسبب صخبًا في الغرفة. سيبدو كأنه صوت عذاب الجحيم، وعندئذ ستقتلنا جدتي

- حسنًا، حسنًا

شعر أن أنفاسه ونبضه أخذا في العودة للعمل بشكل طبيعي بعدما سمع صوت ماكينات الساعات والزنبركات بداخلها، وانسجم قلبه مع صوت الكورال بلا نشاز وكأن وجوده مرتبط بوجود تلك الساعات.

لم يكن إصلاح الأواني وبيع الصابون هو كل ما أجاده هاورد؛ وإنما من بين ما أجاده وقام به لكسب المزيد من المال، مطاردة الكلاب الضالة وقتلها، وتوليد النساء، وإطفاء النيران، وخلع سن فاسد، وحلق شعر الرجال، وبيع خمس جالونات من الويسكي المصنع في البيت لبائع خمور في الغابة الخلفية يدعى بوتس، وإنقاذ طفل يغرق في بحيرة. أما بالنسبة للطفلة التي أنقذها، فهي ابنة سيدة أرملة تدعى

لاروز، وكانت تلعب عندئذ على حافة بحيرة ثم زلت قدمها على حجر زَلِق، وحدث شرخ في رأسها لتسقط في الماء على وجهها. سحبها التيار بسرعة وعلى مسافة مئات من الأقدام، ليلقي بها على تكتل رملي في وسط البحيرة. خلع هاورد حذاءه وشمر بنطاه حتى ركبتيه، ثم غطس في الماء متجهًا إلى الطفلة، وما إن رأى شعرها منسابًا على سطح الماء، ثم سمع جلبة أمها على الشاطئ؛ حتى توقّف في طريق عودته من زيارة لأقربائه، ونزل إليها في البحيرة. وضع ذراعيه تحت جسدها الضئيل، وسرت البرودة منه إلى جسده، فأسرع برفعها ووضعها في العربة ثم اتجه إلى منزلها ليُرقدها في الفراش بجوار المدفأة.

كان الفتى الذي حلق هاورد شعر رأسه، واسمه ميليش، في التاسعة عشرة من عمره، وقد أوشك يومها على الزواج في خلال ساعة ونصف. لم يكن له أحد من عائلته، فقد تُوفيت والدته ورحل إخوانه وأخواته إلى كندا أو نيوهمبشاير أو إلى الجنوب في وونسوكيت بعد زواجهم، وقد كان أصغرهم. يومها انشغل والده في حرث قراريط البطاطس التي يملكها. وكان لزامًا أن يحلق الأب رأس ابنه، بينما يصنع دائرة صلعاء في وسط جمجمته، وتعتبر تلك من مراسم زواجه؛ كونه الابن الأخير له والذي أوشك أن يهجره ليعمل وحيدًا بأرضه.

جاء هاورد بوعاء من الصفيح ووضعه على رأس الفتي، ثم رسم دائرة بالشفرة حول محيط حافة الرأس الدائرية، وبعدها أزال الشعر من داخل تلك الدائرة تمامًا. وحين انتهى، أتي بمرآة لها ذراع للإمساك بها، وأعطاها للفتى الذي أدار رأسه لليسار ولليمين وهو ينظر إليها، ثم أعادها لهاورد مرة أخرى قائلًا:

- أظن أن طريقتك تنم عن ذكاء شديد يا سيد كروسبي!

خلع هاورد سن جلبرت الناسك القاطن في غياهب الغابة بالناحية المطلة على نهر بينوبسكوت، وذلك بالمعنى الحرفي. فقد بدا أنه بلا مأوى سوى الغابة نفسها؛ لكن بعض صيادي الغزلان والدببة والأيائل ذكروا أنه يقطن في كوخ مهجور يرجع لأحد الصيادين. وآخرون ذكروا أنه يعيش في كابينة خشبية فوق شجرة، إلا أنه لم يخلّف أثرًا في الغابة أثناء فصل الشتاء لنيران أشعلها أو أثر قدم، ولم يفهم أحد كيف يتمكن هذا الناسك من العيش في الخلاء لعشرات السنين تحت وطأة ذلك الطقس؛ لكنهم فسروا ذلك بأن الطبيعة قد تتقبل ناسكًا عجوزًا يتعبد في الخلاء، وتمنحه ملجأ ما حيث لا يحتاج لإشعال نار أو غطاء من الصوف.. قال جلبرت إنه تخرج في جامعة بودوين، وتفاخر بأن زميل دراسته كان ناثانيل هاوثورن، وهي الشائعة التي رغم ترويجه لها يمكن

دحضها بعملية حسابية بسيطة؛ وكي يُثبت صدقها فلا بد أن يكون قد بلغ من العمر مئة وعشرين عامًا! ولم يهتم أحد بمجادلته حول هذا الادعاء؛ وذلك أنهم اتفقوا على الرغبة في التفاخر بناسكهم العجوز الذي يسير وسطهم مرتديًا جلود الحيوانات مرددًا ابتهالات غالبًا بلغة غير اللاتينية، ويرون هالة من أسراب الذباب تدور حول رأسه في الفصول الحارة والدافئة، وفضلوا أن يروّجوا لشائعة زمالته لكاتب رواية «الحرف القرمزي»، إضافة إلى أنهم لم يعرفوا شيئًا عن حقيقة اسمه أو تاريخ ميلاده.

زوّد «هاورد» جلبرت باحتياجاته البسيطة، مثل الإبر والخيط والحبال والتبغ. وحين يذوب الجليد -أحيانًا في شهر مايو- يجرّ هاورد عربته مرة في العام متجهًا إلى كوخ نادي كامب كومفورت للصيد -الكوخ المهجور- الذي يقع في أطراف الغابة المتناهية، ليقابل جلبرت في منتصف الطريق إلى الكوخ.. يومئ أحدهما للآخر، ثم ينتقيان صخرة أو بقعة جافة من العشب ليجلسا معًا. يخرج هاورد علبة تبغ من بين الأغراض التي جلبها لجلبرت، فيتناولها منه. يأتي هذا اللقاء الوحيد كل عام في وقت يعاني جلبرت أثناءه من نقص المؤن. يستنشق التبغ الجديد ببطء فيظن هاورد أن ارتياحه لتأثير الرائحة علامة على أن التبغ سيساعده في تحمل شتاء آخر في الغابة. ينظر بعدها جهة النهر، ويشير لهاورد فيخرج

غليونًا من جيب جاكيته. ورغم أن هاورد لم يكن مدخنًا، لكنه حمل الغليون في هذه الزيارة فقط وحرص على أن يملأ وعاءه بالتبغ ليدخنا معًا في صمت بينما يراقبان تيارات المياه في النهر. بعد أن يفرغ التبغ من الغليونين، ينفضان عنهما الرماد ثم يتركونهما جانبًا.

يفتح جلبرت حقيبته المصنوعة من جلد الغزلان، ويُخرج منها منحوتين خشبيين، أحدهما على هيئة أيل والآخر قِندَس أو جُرَذ. وكلا المنحوتين يفتقران إلى الحِرَفية والجودة مما يجعل هاورد متأكدًا من أنه صنعها من بقايا الحيوانات التي يقتات عليها.. يضع إلى جوارهما فرو ثعلب نظيف ومجفف باحترافية وملحق به الرأس الذي تنبعث منه رائحة اللحم العفن. في المقابل يسلمه هاورد الأغراض المتفق عليها لتتم المقايضة، وربما يتبادلان بعض الكلمات ضمن ذلك الطقس الربيعي السنوي كما حدث في السنوات الأولى، وتتمحور حول تعديل بيانات الطلب الجديد للعام القادم. وبعد الاتفاق على الأصناف، لا يعود هناك مجال لأي حديث آخر.. وهكذا سارت الأمور على مدى سبع سنوات متتالية. إلى أن تغيّر الأمر في السنة الأخيرة حين تقابلا في الغابة ولاحظ هاورد أن وجنة الناسك متورمة ولامعة كثمرة تفاح ناضجة. كان جلبرت واضعًا يده على وجنته وعينيه على موطأ قدمه أثناء سيره، فأومأ هاورد برأسه متسائلًا

دون أن ينبس ببنت شفة، فأجابه:

- سِن

لم يتخيل هاورد أن ذلك الناسك العجوز لا يزال محتفظًا في فكه بأي أسنان. اقترب منه ففتح فمه، ليرى هاورد فكي جلبرت شبه الخاليين من الأسنان إلا من سن واحد أسود متورم في لثة دامية أشار إليها جلبرت وكرر:

- السِنّ

- نعم، أراها، مشهد صعب

ابتسم هاورد متعاطفًا؛ إلا أن جلبرت استمر في الإشارة إلى فمه، وكرر نفس الكلمة

- لا، السِّن

ففهم هاورد أن العجوز المسكين يطلب منه أن يخلعها

- لا، لا، لا أدري كيف أقوم بذلك

- لا، السِّن

هذه المرة رفع صوته بنبرة تصميم حازمة، وقبل أن يعيد هاورد نفس الجملة، قاطعه جلبرت من جديد ودفعه نحو عربته حيث أوقفها على بعد ثلاثة أميال من كوخ النادي

المهجور. انصاع ورحل بعربته ثم عاد بعد ساعتين ونصف بزجاجة ويسكي صغيرة من متجر بوتس في منطقة السهول الجبلية، وزوج من الملاقيط الطويلة يستخدمها في تطويع الصفيح بالأواني غير المسبكة. في البداية رفض جلبرت تناول أي خمر، ثم فقد وعيه بمجرد أن بدأ هاورد يجذب السن بملقطين. ملأ هاورد قبضته من النهر ورشّ وجه جلبرت بالماء البارد فاستعاد وعيه وأمسك بزجاجة الويسكي وتجرع منها جرعة واحدة وفيرة، ثم فقد وعيه مرة أخرى من أثر ملامسة الخمر للثة المتورمة. أعاد الكَرّة ورَشَّ وجهه بحفنة من ماء النهر، ولما أفاق جلسا معًا يراقبان عصفورين يطاردان غرابًا فوق أشجار التنوب.

ارتفع المد في النهر بعد ذوبان الجليد فارتطمت أمواجه وعلا صخبه، حتى بدت الأصوات الصادرة منه كأنها عراك مجموعة من الرجال يتصارعون. راح جلبرت يردد أبيات لفيرجيل(3)، بينما أمسك هاورد السِنّ الفاسدة بالملقطين لينزعها بكل قوته. لم تنخلع السن، فتركها هاورد وسقط جلبرت مغشيًّا عليه بعد ما تجمد في مكانه للحظة وهو ينظر إلى الفراغ. ظن هاورد أن زبونه فارق الحياة حين رآه مستلقيًا على ظهره، إلى أن خرج فجأة صفير ضعيف من أنفه يُثبت أنه لا يزال على قيد الحياة. كان فمه مفتوحًا عن

آخره، فقبض هاورد على السن بالملقطين ونجح أخيرًا في خلعه، فتناثرت الدماء على وجه جلبرت وذقنه. أعادت حفنة من ماء النهر إليه وعيه مرة أخرى؛ لكنه فقده من جديد حين رأى هاورد واقفًا أمامه بالملقطين في يد، وفي اليد الأخرى السن التي بدت ضخمة بجذرها الطويل بشكل استثنائي.

استيقظ هاورد بعد أسبوعين من تلك الواقعة على صوت نباح بادٍ، فنهض من فراشه وتوجه إلى باب المطبخ، لينظر عبر الزجاج ويرى ما إذا كان هناك دب أو بقرة ضالة دخلت إلى ساحة المنزل الخارجية.. وجد طردًا على عتبة الباب عبارة عن لفافة من الجلد المغطى بالدهن تنبعث منه رائحة نتنة، ومربوط بدوبارة حبل سَبَق لهاورد أن باعها من قبل. تحت ضوء القمر وقف يفض اللفافة التي ظهر أسفلها طبقة من قماش الفيلفيت بداخلها نسخة جديدة لامعة الغلاف من رواية الحرف القرمزي لم تُفَض أوراقها الملتصقة بعدُ. فتح الرواية فوجد عليها إهداءً مكتوبًا في الصفحة الأولى، «إلى هيك جلبرت: لذكرى أيام الزمالة والشباب في رحلاتنا الأولى، وعلى أمل أن تجمعنا دائمًا الأخوة والصداقة. ناثانيل هاوثورن ١٨٥٢».

حين ذاب الجليد في العام التالي، أخذ هاورد غليونه من درج العربة، ودعكه في فخذه من فوق البنطال، ثم نفخ في

وعائه ووضعه في جيب جاكيته. أعد حزمة الأغراض التي سيقوم بتوصيلها لجلبرت، وسلك طريقه عبر الدرب الهندي في الغابة، وحين بلغ وجهته لم يجد أثرًا لزبونه. كرر الزيارة يوميًّا لمدة أسبوع؛ لكن جلبرت لم يظهر. في اليوم السابع عاد هاورد من الطريق الهندي ثم جلس عند النهر يدخن غليونه بالتبغ الذي جاء به إلى الناسك بينما أنصت إلى صوت تلاطم الأمواج المتعاركة وهي تكتنف المكان، وفي مكان ما من أعماق الغابة كانت ترقد مجموعة من العظام على سرير من الطحالب، وفوقها أسراب من الذباب الكئيب، ظلّت يقظة من الخريف السابق حتى جاء الصقيع.

هذا كتاب! كتاب عثرت عليه في صندوق، ووجدت الصندوق في العِلِّية، أسفل إفريز السطح. ارتفعت حرارة الجو في العلية، وسكن الهواء، وفاحت منه رائحة الرطوبة والعفونة والغبار. تناثر الغبار من فوق الصور القديمة والكتب. شممت رائحة غبار هذا الكتاب فبحثت عنه ووجدته، وتذوقته قبل أن أقرأه. غلاف الكتاب من الجلد اللامع، وبه صفحات كبيرة، والصفحة كثيفة، ولونها أبيض لوزي. الصفحات مملوءة بالكتابة، بحبر أزرق ثقيل استوعبته الصفحات الكثيفة كما تستوعب خيوط الكانفا ألوانَ اللوحة. الصفحات لم تتشرب الحبر، بل بقيت معرضة للهواء وبقي الكتاب مفتوحًا إلى أن يجف الحبر. كان الأزرق داكنًا لدرجة

جعلته يبدو أسود. تشبه الكتابة خط يدك، وكأنك أنت من كتب في صفحات هذا الكتاب الذي يبدو كقاموس أو موسوعة من نوع ما، لأنه مليء بالروايات عن خلفيات الأحداث، وينبعث منها ضوء الشمال البارد الواهن، وقصص من فصول الصيف القصيرة. سأقرأ عليك مثالًا. ولكن أولًا هل أنت مرتاح؟ هل ترغب في أن أحرك السرير لأسفل كي ترتاح أكثر؟ هل ترغب في بعض الماء؟ لا أحد، الجميع نائمون. هل أقرأ عليك مثالًا؟ ألا تتذكر أنك دوّنت في هذا الكتاب؟ الخط يشبه خطك، وكذلك خطي. لماذا لا أقرأ عليك من البداية؟ لا، أنا تشارلي؛ إنما سام ينام الآن في غرفة والدتنا. لا أظنه يدخن حتى الآن. ليس بعد إصابته بالالتهاب الرئوي في الشتاء الماضي. الفقرة الأولى تقول:

عالم الشمال: بشرة السماء الفاتحة والسحب والجبال المطلّة على البحيرة الساكنة. جسد الماء الذي يختبئ تحت سطحه النبات والسمك، وتغطيه طبقاتُ الجليد ويغمره غطاء الليل وضوء النهار. بشرة السماء كبشرة الماء، زجاجية وسائلة، تعكس ضوء القمر الساطع والنجوم الدوارة والطيور المحلقة. بشرة السماء تعكس لون الخضرة الداكنة والبراعم المزهرة، فيسطع بياضها وتلقي بأشعتها على البحيرة حتى تضيء قاعها وينكسر ضوؤها على بشرة الماء. نهمس عبر المجرات بسؤال: لماذا قد نحتاج كوكب المريخ؟

كيف تعبّر عن نفسك إذا شعرت أن بداخلك برقًا يضربك فتنشطر إلى نصفين؟ طالما شعر هاورد أن الأمر أشبه بانفجار هائل في داخله، رغم أنه بعد كل نوبة صرع لم يستطع تذكر تفاصيل ما يحدث له أثناء الهجمة الفجائية؛ لكنه يعلم جيدًا اللحظة التي تسبقها، حيث يسري البرد في جسده قبل أن يرتعش ويسقط. ويعلم أن الدماء أثناء النوبة تغلي في أوردته وعقله يُشوى في جمجمته. وكأن بابًا سريًّا في جسده ينفتح على عاصفة كهربية أثيرت في جزء ما من النظام الشمسي. وتخيل أن ذلك الباب يكون غير مرئي وهو مغلق، وحين يفتح يروح ويجيء ببطء لأنه ضخم ومصنوع من خشب البلوط الغليظ، وله مقبض خشبي عازل لتيار العاصفة الكهربي. وتساءل إن كان للباب مقبض من الجهة الأخرى؛ لكنه لم يكوّن فكرة عن حقيقة ذلك لأن الباب سواء مغلق أو مفتوح لا يظهر ما وراءه. وحين يكون مفتوحًا يظهر مطليًّا بألوان الظل والضوء والعشب والماء، ومن خلفه ظلام دامس والكون المعتم يحيط بمدار من الضوء. يشع المدار بشحنات كهربية من الضوء المشتعل، ويفتح الباب فينطلق شعاع مشحون عبره فيضرب جسد هاورد بسرعة وقوة وينفجر بداخله.

بعد انتهاء النوبة، يصيب جسده البارد خدر، كما يصيب

عقله حالة من الارتباك ويصبح رأسه كشواية كهربية يتصاعد منها دخان أزرق ويسري في حدقتيه، ويستمر ذلك لساعات وهو جالس بعين زائغة، فاغرًا فاه، ملتفًّا بغطاء من الصوف، ولم يزل أثر البرق يشع في جسده. يفكر أنه ربما ليس بابًا، بل أبواب، أو أنه ليس أبوابًا على الإطلاق، وإنما ستائر تخفي هذا الكون بنجومه المشعة، لتجعله دائمًا غامضًا.. ربما ستائر وجداريات تلك التي تخفي هذا الكون. ربما أيضًا هي ليست مجرد شعاع مشحون يضرب جسده؛ بل وليمة كونية يُدعى إليها مع كائنات أخرى، وأن الانفجار الذي يحدث بداخله هو من أثر الطعام الذي يجبر على تناوله. تبدأ النوبة فعليًّا حين يخترق السهم اللحم، ثم يحدث كل شيء دفعة واحدة، دون قبل وبعد، ودون ثم؛ إنما يحدث الأمر ببساطة، كدفعة واحدة من طاقة اللاوعي تدخل جسد هاورد وتجعله نقيًّا. هو شيء يمكن تفسيره بأنه لا موت أو شيء من الموت. وبدلًا من أن تتسبب النوبة في إحداث فراغ وانطفاء بداخله، تملأه بالطاقة إلى الحد الذي يرهقه تمامًا. ولو كان الموت هو آخر رحلة للإنسان، فإن النوبة بالنسبة لهاورد هي رحلة ذهاب وعودة مستمرة بين الحياة والموت.

عبّر **جورج** قبل وفاته بست وتسعين ساعة عن رغبته في حلق ذهنه. فقد اعتاد المحافظة على مظهره بتصفيف شعره بأناقة، وتفصيل معاطفه وقمصانه بعناية، حتى في اختيار

نوعية الأقمشة الفاخرة غالبًا، والتفصيلات المواكبة الحديثة. والآن نمت شوارب طويلة في أنحاء متفرقة من وجهه بعدما استحال أن يطلق لحية أو شاربًا من قبل، حتى لو أراد؛ لذا كان حلق شعر وجهه أولوية، وإلا إن تغاضى عن تلك الأولوية ولو يوم واحد بدا مظهره كمراهق كسول لا يعتمد على نفسه ولا يهتم بمظهره.

- يا إلهي! منذ متى لم أحلق؟ أظن أنني أحتاج لأن أحلق الآن.

قال وهو ينظر حوله إلى الحاضرين من عائلته في الغرفة، فوجد زوجته وابنتيه كلير وبيتسي وبعضًا من أحفاده اليافعين وأخته الوحيدة الباقية على قيد الحياة ميرجوري. ارتدت ميرجوري قميصًا من الكتان بياقة تغطي الرقبة وقد أغلقتها لآخرها بسحَّاب، وجلست تدخن سجائرها النسائية الطويلة في شرفة الحديقة الخلفية رغم أنها مريضة بالربو المزمن، عاقدة ذراعيها على صدرها وهي تنفث الدخان ببطء. سمعت أخاها يتحدث وهي تلقي بمبسم سيجارتها وسط العشب، فعادت إلى الداخل وأُغلق الباب خلفها من تلقاء نفسه، مصدرًا صوتًا فجائيًّا كسر الصمت الرهيب الجاثم على الغرفة. وكان من المفترض -لولا ذهابه إلى المستشفى- أن يذهب في صباح ذلك اليوم لشراء مقبض هيدروليكي

لباب الشرفة كي يمنعه من إصدار هذا الضجيج. صدَّقت أخته على ما قال:

- لماذا لم يحلق أحد شعر جورج؟ من سيفعل؟ المنظر مفزع. يبدو جورج مريعًا، يا ربي، شكله مفزع.

قال سام أحد أحفاده:

- ياه! أنت على حق، أيتها الخالة ميرجي، نحتاج لإزالة تلك الذقن التي تشبه ذقن الماعز العجوز، ونعيد إلى جدي مظهره الأنيق. سأقوم بذلك، هيا يا جدي، اتلُ صلواتك ولا تتوقف!

- الحقيقة أن سام تمنى لو أن الخالة ميرجي ماتت وتركت له علبة سجائرها

- أنا جاهز

- وأنا كذلك

ذهب سام وعاد بطبق ماء دافئ ومنشفة ساخنة وكريم الحلاقة وشفرة بلاستيكية رخيصة أعطته جدته إياها لأنه لم يجد شفرة جده الكهربائية. حتى جورج نفسه لم يتذكر مكانها، ولم يهتم أحد بشراء غيرها من الصيدلية. حين وضع سام المنشفة الساخنة على وجه جورج، سرت في جسده قشعريرة ضعيفة من أثر أعراض داء باركينسون.

رغب الحفيد في تدخين سيجارة أثناء أداء المهمة، وامتعض لاضطراره أن يؤديها أمام هذا الجمع العائلي، لكنه صب كل تركيزه فيما يفعل وأمسك رأس جده بقوة ليتوقّف عن الارتعاش. لم يكن جورج في حاجة لاستخدام معجون حلاقة حيث إنه اعتاد الحلاقة بالشفرة الكهربية.. أنبوب المعجون الذي استخدمه سام كان قديمًا وصدئًا، أتى به من وسط أغراض قديمة أسفل حوض الحمام. خرج بعض المعجون بالكاد من الأنبوب بعد أن عصره سام بقوة، ووضعه على وجه جورج ورقبته. انتهى من حلق وجنتيه، وانهمك في إزالة الشعر حول الفم بحرص. قالت ميرجوري:

- لا تجرحه!

التفتت أختا جورج باهتمام نحو سام، وقالت أمه بيتسي التي هي إحداهما في محاولة لمساعدته ودعمه

- احترس

تدخلت جدته، زوجة جورج

- احلق ذقنه جيدًا، هو دائمًا لا يجيد حلق ذقنه جيدًا

قال سام:

- سيجارة!

فأجابه جورج

- ماذا؟

- لا شيء! ابق ساكنًا في مكانك يا سيد «كريسجي»

وصل سام إلى اللغد المتهدل بين الذقن والرقبة، فقام بشد الجلد عن آخره ثم سحب الشفرة عليها ليزيل الشعر بحرص، وهو ما أرهقه وزاد من حاجته إلى النيكوتين؛ فبدا عليه الإجهاد. حين ظن أنه أنهى المهمة، ومسح بقايا المعجون عن وجه جده بالمنشفة، وجد بقعة مُشعِرة في الرقبة لم تحلق بعد.

- انتظر! هناك بقعة لم أنتبه إليها

بدلًا من أن يضع ماء ومعجونًا مرة أخرى، سحب الجلد المشعر الجاف وحلقه بالشفرة فأصابه بجرح، فقال

- اللعنة!

- ماذا؟

سأله جورج فأجابت ميرجوري

- دماء؟

رغم أن الجرح كان سطحيا؛ لكنه نزف بعض الدماء وأسال

خيطًا منها على رقبة جورج، طال ملاءة السرير مما استدعى ضرورة تغييرها، وهي المهمة الأصعب مما تبدو عليه، وذلك أنها تستدعي أن يشترك جميع أفراد العائلة في دفع جسد جورج ولفه في اتجاه ما لإبعاده وإزاحة الملاءات، ثم دفعه للاتجاه الآخر لسحب الملاءات من تحته. ميرجوري التي لم تشارك في دفعه، صعُب عليها أن تراه بلا حول ولا قوة، فأدمعت وصاحت:

- هذا مريع! ليفعل أحدكم شيئًا

أخرجوها من الغرفة إلى أن ينتهوا، واستسلم جورج الذي لم يشعر بأي شيء، حتى بدلوا الملاءات ووضعوا له لصقة على الجرح بعد تنظيفه وتوقفت الدماء، وبدا مظهره الجديد أفضل بعد أن رقد في فراشه. عادت ميرجوري بينما أعطى سام جده مرآة فرأى انعكاس صورته، واندهش كأنه يرى وجه شخص غريب وقح وفضولي احتل جسده وطغى على وجوده. انتبه جميع من بالغرفة إلى علامات الاندهاش التي بدت واضحة على جورج، فسأله سام:

- حسنًا، ما رأيك؟

بدا جورج حائرًا وهو ينظر لسام

- أقصد ما رأيك في الحلاقة؟

نظر إليه جورج مرة أخرى، وبدا هذه المرة ضائعًا تمامًا. مال سام نحوه ببطء وكرر سؤاله بنبرة أكثر هدوءًا:

- ما رأيك في الحلاقة؟

- آه، تقول الحلاقة؟ رائعة جدًّا! لقد استعدت وسامتي

- نعم، تشبه ليتل ليروي، صبي الكابينة

- نعم، كان صبيًّا حصيفًا

كان الطريق سهلًا غائرًا بين تلين صغيرين نمت فوقهما الأشجار ومالت باتجاه الطريق حتى لامست أغصانها عشب الأرض. اقترب الغروب وألقت بظلال ضوئها اللامع على النباتات الفارعة والأشجار السامقة. قاد **هاورد** عربته في الطريق السهلي، وشعر بالظلال تتوارى من خلفه بينما عبر على الجانبين إلى جواره بعض الحيوانات التي اتبعت الظل قبل حلول الظلام بحثًا عن أي طعام وسط العشب، ومن بينها رأى ثعلبًا أحمر مرقعًا بالأسود يتنقل بين الظلال الداكنة. أحب هاورد هذا الوقت من النهار حين تشرع الشمس في الرحيل ويدخل الضوء في الظلام. قاوم رغبته في إيقاف العربة والاستراحة مع بغله الملقب بالأمير إدوارد والإغداق عليه بثمرة تفاح، أو مجرد الاستمتاع بالهواء النقي الذي تجلبه نسائم الليل، أو الوقوف مرتكنًا إلى مقدمة العربة

ليراقب الظلال تقترب وتدور حول العربة والبغل والإنسان الذي يصحبهما إلى أن يغمرهما الظلام. سار وسط الأشجار الكثيفة وبدأت الظلال تحوم حوله، فاقشعر جسده وانتصب الشعر على ذراعيه وقفاه وبردت فروة رأسه، ثم سرى الخوف من تلك الظلال بداخله وفشل في التخلص منه كلما حاول أن يشتت أفكاره عنها. تلك الوصفة السرية التي تحوي مكونات الضوء والظلام لعالم الغابة الخيالي يصعب رؤيتها بالعين المجردة. وعلى الرغم من أن العين المصنوعة من ماء وأعصاب والتي تلتقط الضوء؛ هي معجزة في حد ذاتها؛ لكن يستعصي عليها فهم خليط يبدو مجرد غابة وضوء وظلام، وأوراق تندمج مع درجات الظل، وجاذبية ونجوم ورياح تهز البراعم والغصون.

هكذا اتسمث أحلام يقظة هاورد بالخيال الجامح في ظل الحياة التي عاشها في غياهب الغابة مصاحبًا للأمير إدوارد وغيره من الحيوانات البرية؛ مما جعله عُرضة دائمًا للنوم والحلم بينما عيناه لا تزالان مفتوحتين.

الشفق في الشمال: ١. يلمع لحاء شجر الباتولا ويبرق بلونيه الفضي والأبيض في الغسق، ثم يتقشر عن الجذع كأنه أوراق مخطوطات بالية، ٢. تضيء اليرعات في وسط العشب الكثيف وتصنع هالات حول أطواق الزرع، ٣. تبدو

المساحات التي تفصل الأشجار أشبه بعباءات مفرودة ومضيئة، ٤. تتبع الثعالب الظلال، والبوم ينظر لأسفل من فوق الأغصان، والجرذان تنشط في جماعات.

ساعة أثرية رائعة أخرى وجد المؤلف سعادة متناهية في معرفتها والإشارة إليها هي الساعة الرملية التي أهداها ملك الفرس إلى شارلماني عام ٨٠٧.

«حاول الأوائل البحث عن طرق للإمساك بالزمن وتسجيله بدقة أكبر من وسائل أخرى؛ منها الاعتماد على حساب حركة الظل على مركبة أبوللو فوق أسطوانة من الحديد، لكن عيبها أن حركة الظل تتوقف بعد الغروب. أو استخدام مصباح زجاجي يعمل بالزيت ثم يتم حساب الأوقات التي يستغرقها الزيت ليفرغ حين تنطفئ الشعلة.

ثم جاء رجل يتمتع بروح متعقلة حساسة، جلس يرتاح عند شاطئ البحر ويراقب الأمواج الفائرة، يسمع دون غيره من البشر -في أحلام اليقظة- صوت حركة الرياح والسحب في السماء، ودوران الكواكب في مداراتها في الفضاء.. جميعها اندمجت مع صوت الأمواج اللامعة تحت ضوء النجوم. رجل لم يتمتع بالشهرة آنذاك، لكنه عاش وسط مجتمع مليء برجال آخرين قلوبهم انفتحت على الطبيعة وعقولهم سعت إلى تطوير البشرية. كان الرجل منهمكًا في الآلات

التي أتقن العمل عليها ونجح في صنعها لحساب الزمن، إلى أن تفتقت قريحته عن آلية يمكن بها تحديد حركة الوقت بدقة عن طريق صنع ماكينة ساعة تعمل بالطاقة المائية. إنه ستيسيبيوس السكندري، مخترع الآلة التي أهداها أحفاده العرب فيما بعد للإمبراطور تشارلز العظيم، وقد ساعدته في تتبع الزمن خلال السبع سنوات الأخيرة من حياته.

زود السكندري الآلة بأنبوب مياه يصب في مجرى مخصص به قضيب طافٍ يغطيه مجسم مصغر لرجل يرتدي قبعة مثلًا وعباءة وله لحية سوداء كثة وعينان لهما نظرة غاضبة. يخرج من هذا المجسم عقرب دوار، ربما على شكل رمح يحمله هذا الفارس. يرتفع المجسم حين تُضخ المياه في الأنبوب ويرتفع القضيب، ويدور العقرب مشيرًا مع حركة الوقت إلى أربعة وعشرين خطًّا يقسمون اليوم إلى نفس العدد من الساعات. حين يتحرك المجسم باتجاه الساعة الرابعة والعشرين، يصل أنبوب الماء إلى «صندوق سيفون» الذي يفرغ الماء في المضخة التي ستعيد ضخه من جديد حين تبدأ الساعة دورة يوم جديد. عندئذ يعود المجسم إلى الخط الأول مرة أخرى مشيرًا إلى منتصف الليل. هذا النموذج من الساعات والذي أهدي لشارلماني؛ لم يكن النموذج الوحيد؛ بل هناك نماذج أخرى عُملت بنفس التقنية؛ منها نموذج مقسم إلى اثنتي عشرة ساعة، ويشير

العقرب في كل ساعة إلى باب ما فينفتح وتخرج منه كرات ذهبية تشير إلى رقم تلك الساعة المحددة، تسقط فوق صاج نحاسي صغير يحيط به إطار مربع من جلد الماعز. وفي منتصف الليل تخرج اثنتي عشرة كرة من الباب الأخير، تدق اثنتي عشرة دقة على الصاج النحاسي، يسير خلالها اثنا عشر فارسًا فوق أحصنتهم ويمرون على الأبواب ليغلقوها واحدًا تلو الآخر».

(من كتاب الساعاتي الحكيم/ ريف كينر ديفينبورت، ١٧٨٣)

أصاب الجفاف **جورج** قبل وفاته بست وتسعين ساعة، وجلست «بيتسي» أصغر بناته، إلى جواره عند طرف الفراش، تحاول أن تحثه على شرب الماء. زودهم المشفى بمجموعة من قطع الإسفنج ليتم غمرها بالماء ووضعها في فم المريض الذي اشتد به المرض ولم يعد قادرًا على الشرب من الكوب ليمتصها. تخيلت «بيتسي» أباها في مشهد عبثي كأنه طفل يلعق حلوى على عصا صغيرة، ورأت أن من الأفضل لو حثته على الشرب من الكوب.

- لابد أن العطش اشتد بك. ألا ترغب في جرعة من الماء بدلًا من مص تلك الإسفنجات المربعة؟

لم تتحمل رؤية أبيها يمص الماء من إسفنجة تشبه تلك

التي تُستخدم في تنظيف الأطباق.

- سيكون رائعًا بالطبع، يا إلهي، كم أنا عطشان!

حين رفعت الكوب إلى فمه وأمالته قليلًا، نظر إليها فسال الماء كله من فمه إلى ذقنه. فعادت تشبع إحدى الإسفنجات بالماء وتدسها في فمه. كاد يبتلعها وانحشرت في حلقه حتى اختنق وشَرِق. أخرجت الإسفنجة بعد أن امتلأت باللعاب الغزير.

- كان هذا جيدًا، فقد كنت أشعر بالعطش الشديد

عانى الأمرّين من الفشل الكلوي المميت، وتوفي في النهاية نتيجة تسمم من حمض اليوريك، ولم يتمكن جسده من إخراج أي ماء أو طعام دخل إليه. أخبرت بيتسي أختها وأمها وأبناءها بأنه يعاني من العطش الشديد، ويحتاج إلى الماء، فأخبرها توم أن العطش هو أقل ما يشعر به، وأن حالته ساءت وهو الآن يحتضر.

زرعت بيتسي المسك الأحمر أمام شاهد قبره في الربيع الذي تلا وفاته ودفنه بالمقابر المحلية. كان هناك خطأ في تاريخ ميلاد زوجته على هذا الشاهد؛ لكنها حين عرفت بالخطأ أخبرت العائلة ألا يصلحوه إلا بعد وفاتها ودفنها وإعداد شاهد قبرها. زرعت بيتسي المسك حتى حلول

الخريف، واعتادت أن تسير لمسافة ميلين بحذائها الرياضي كل يوم بعد عملها إلى المقابر لتسقي النبات وتتحدث إلى أبيها، حتى بلغ ارتفاع المسك من جذوره في الأرض الموحلة ثلاث بوصات. بين القبور تدفقت بحيرات صغيرة إلى الحدائق العشبية، وصرفت مياهها بسرعة حتى لا تغرق النبات وتقضي عليه في أقل من أسبوع لو استمرت في الجريان دون صرف.

العواصف في الشمال: ١. تتحول السماء من الزرقة إلى اللون الفضي، وكذلك لون الماء على سطح البحيرة بعدما ينعكس عليه ضوء السماء، فتبدو كأنها بحيرات من الزئبق. تهب الرياح وتهتز أوراق الشجر فيسطع الضوء الفضي على جوانبها الخفية، ثم يتحول لون السماء من الفضي إلى الأخضر. نقف على المرسى المتلألئ باللون الفضي حيث تركن قواربنا الخشبية وقد شُدت حبالها إلى أعمدة الألومنيوم. ننحني وننظر إلى سطح الماء فنرى من خلال الضوء ما طفا على السطح من أعشاب وغيرها مما يحمله الماء. نمعن النظر لنرى السلمون، لكن يزيغ النظر عنه، فنعرف أنه يراوغ كي لا نراه، ويبتعد إلى ما وراء القوارب الساكنة كي يختفي خلفها. تحت سطح الماء يسبح السلمون خفيًّا مثل الأعشاب البحرية، ولا يظهر إلا حين يخترق الماء ويخرج ليلتقط وجبته من الحشرات الطافية، ٢. تسري

الرياح بين الأشجار المحيطة بالبحيرة بسرعة كما تسري الشائعات، أو أصوات الرجال العجائز المتداخلة في جمعهم حين يتحدثون عن قرب وقوع العاصفة القادمة من وراء الجبال. يقبع البرق فوق قمة الجبل ويمد ذراعيه ليملأ قبضتيه ويرتوي من ماء البحيرة. يضرب بألسنته الكهربية التي تشبه ألسنة الضفادع الشرهة سطح المياه الضحلة، ومن بعده يزأر الرعد فتهتز كابينة القيادة في المركب كأنها تغرق في قلب المياه.

غطى الجليد براعم التيوليب وزهور النرجس اليانعة أثناء إحدى عواصف الربيع الأخيرة، إلى أن ذاب بعدما سطعت الشمس، تاركًا آثاره على الورود التي تشبّعت جذورها بالمياه الباردة فانتشت وامتدت سيقانها وأزهرت بتلاتها كأن الجليد بعد ذوبانه منحها نضارة وإشراقا. بدأ النحل يظهر مع تسرب الدفء إلى الجو، واسترخوا جميعًا في تيجان الزهور ليمتصوا الرحيق كأنهم حديثو الولادة يتلقون رضعتهم الأولى. أوقف هاورد الأميرَ إدوارد على الطريق وأعطاه جزرة رغم تأخره عن مواعيد جولته، ثم تركه وسار إلى حقل زهور يحوم فوقه النحل. وقف هاورد مسبلًا جفنيه وسط الحقل يتنسّم الهواء البارد ورائحة النبات دون أن يلحظ النحل وجوده لانشغاله الشديد بجمع الرحيق في موسمه. ذكّرته رائحة البراعم بالمياه المعدنية الباردة المنسالة على

النبات الأخضر، وتعجب من أنها لا تشبه في شيء رائحة الزهور في منتصف الصيف. انحنى على زهرة نرجس ودقق النظر في تاجها المكوّن من ست أوراق متفتحة كأنها شمس صغيرة ساطعة. نزلت نحلة على التاج وراحت تحك جسدها بالأوراق والرحيق، فاستجاب هاورد لفضوله ومال أكثر ليشم رائحة النحلة. تخيل أنها لدغته بإبرتها ثم استلقت على ظهرها ميتة فوق العشب، بعد أن تركت له تورمًا مؤلمًا في أنفه جراء اللدغة. استنشق من جديد ولكنه هذه المرة اشتم المياه المعدنية الباردة ممتزجة برائحة الرحيق الحلو النفاذ، واستمتع باستنشاق المزيد.

كان هناك في آخر الحقل أطلال بيت قديم مهجور، وبدا أن الزهور هي آخر ما تبقى من حديقة هذا البيت التي ربما زرعتها امرأة سكنت هنا قبل أن تطلي الجدران، مع زوج غامض جاد، وابنتين هادئتين جادتين، فزرعت الورود كردة فعل تقاوم بها الحياة الرتيبة في بيئة بدائية كي لا تصاب بالجنون الحتمي. وذلك أن الإنسان لا بد أن يجد مأوى مريحًا بعيدًا عن فضول الآخرين وتدخلاتهم أو ضوضائهم. حتى لو قرأت هذه المرأة في الإنجيل أن عليها أن تقبل الآخر وحقه في الحياة والسلطة والاستمتاع بملكيته والنعم التي أعطيت له؛ فإنها لن تتحمل الصخب الذي يأتي به الآخرون إلى عالمها الهادئ الصامت، ومن ثم ستعوضها الزهور التي

زرعتها عن تلك الصحبة الصاخبة غير المرغوب فيها. والآن يسير هاورد وسط ما تبقى من هذا العالم الذي انتهى نهاية مأساوية، وقد أحس أن جميع أسرار المكان تنكشف أمامه، وأنه يرى في اليقظة أحلامًا تفسر له إجابات الأسئلة التي طالما دارت في رأسه. ولكن بعد أن تكشّف له سر الزهور، لم يكتفِ بذلك، وعاد ليتساءل عن ألغاز أخرى: «وماذا عن الكائنات التي تعيش وسط العشب والزهور وفي الضوء والظل؟»

فتح **هاورد** درجًا من أدراج عربته وأخرج صندوقًا من الدبابيس من ضمن مخزون بضائعه بعد أن قرر شراءه لنفسه، ووضع مقابله بنسين في صندوق المدفوعات بالعربة. ربط أربعة عصيٍّ من الخشب معًا بأوراق الأعشاب على هيئة إطار مربع، وجمع المزيد من أوراق الأعشاب العريضة، قام بتدبيس أطرافها في الإطار الخشبي ثم شدها وبدأ يلفها حول الدبابيس إلى أن غطى الإطار كامله بالأوراق حتى بدا أن الإطار نفسه من العشب الأخضر وليس من الخشب. فتح درجًا آخر في العربة وأخذ علبة بنية مرسومًا عليها مقص حياكة يقطع ثوبًا من القماش إلى نصفين. أخرج المقص بحرص وشذب أطراف الإطار العشبي ثم نظفه في أكمام قميصه وأعاده إلى العلبة ثم إلى الدرج نفسه في العربة. أمسك بالإطار ووجّهه نحو الرياح في محاولة ليقبض عليها

داخله، ثم وجهه إلى الشمس فانعكس الضوء على لفائف العشب المحيطة به فلمعت وأشرقت.

برزت الزهور البرية والنباتات المعمرة وسط الحقول، وراح هاورد يجمع بعضًا من عشب الحوذان الذي ينمو في حقول النباتات المعمرة والمروج والمناطق ذات البيئة المناخية غير المستقرة. كذلك جمع بعض البراعم البيضاء الصغيرة دون أن يعرف اسمها، ورتبها في باقة داخل الإطار، جاعلًا الزهور الصفراء إلى جوار البيضاء، ثم خاط مئة من البراعم في عقد من الخيط وأضافها إلى الإطار. وقفت غزالة مختبئة في الظل تراقب هاورد، وحين لمحها أدرك إلى أن الظلام أوشك على الحلول. تجاهل جولة العمل لهذا اليوم الذي لم يبِعْ فيه أي بضائع سوى الصندوق الذي اشتراه مقابل بنسين. يحصل كولين على البنسين كاملين إلا القليل منهما سيكون نسبة هاورد من البيع. فكر أن يأخذ نصيبه أحد البنسين باستخدام مبرد، ثم يحمل برادة الفضة ويعود بها إلى كاثلين في المنزل ثم يضعها في يدها فتذهل وتندهش ثم تغضب كالعادة، لكنه سيخرج لها من خلف ظهره الإطار العشبي الذي يضم باقة الزهور، فيتحول غضبها لاندهاش مرة أخرى ثم لسعادة. تخيل أنها ستمسك بالإطار في يد ومصباح الزيت في اليد الأخرى لتضع الإطار أمامه كي يبدو كأنه لوحة للمصباح، تمامًا كما فعل هاورد حين وضعه أمام الشمس. وربما

ستضعه أمام وجهها وتشم رائحة الورود الملتصقة بلفائف الأعشاب، أو تضعه أسفل ذقنها قريبًا من البراعم البيضاء كي ينعكس البياض على وجهها، فيضحك. ستخبره أن اسم البراعم البيضاء «زهور الريح».

ارتعد هاورد فجأة حين سرى البرد في جسده، واستنشق من جديد رائحة المعادن في المياه الجارية بالحقول تفوح من التربة. تلك الرائحة لا تسري أثناء الصيف حين تسطع الشمس وتجفف التربة. لكن جذور الزهور تشربت المياه المعدنية حتى صارت أوراقها أشبه بالصنوج النحاسية، وتخيل أنها ستصدر رنينًا إذا قُرعت بعصًا خشبية. سمع رنين بتلات الزهور، ورنين المياه. أفلت هاورد إطار العشب والورود بعدما زاد الصخب بانضمام النحل إلى الكورال الموسيقي حين علا أزيزه في الحقل الذي تحول إلى مسرح لعزف كونشيرتو آلات نحاسية.

قبل أربع وثمانين ساعة من وفاة **جورج**، شعر أن أفكاره لا تزال تتحوّل وتتحرك كقطع الموزاييك التي تطفو في إطار ضخم يحيط بمساحة هائلة من الفضاء. حدّث نفسه بأن النموذج الذي تتبعه القطع في الحركة يدل على أنه لم يزل هناك قطع مفقودة لم تدخل في الإطار بعد، وأن القطع المتحركة ستظل تطفو على غير هدى إلى أن تظهر الأجزاء

المفقودة وتكتمل الصورة، وعندئذ يمكنه أن يفسر تلك الأفكار. وحتى يحدث ذلك سيظل في حيرة من أمره وهو يراقب الحركة التي لا تهدأ في انتظار اكتمال النسق في هذا الجزء الخاص به من الفضاء داخل الإطار. غير أنه خشي لو اكتملت الصورة واستقرت على الشكل النهائي، فربما تؤثر عليها الصور في الإطارات الأخرى الخاصة بذكرياته المشتركة مع أناس آخرين؛ حيث إنها هي الأخرى لم تكتمل بها الأجزاء ولم تستقر في فضاءاتها الأنساق الخاصة بها.

حدّث نفسه: سيحاول أحفادي أن يستعيدوا ذكرياتهم معي؛ لكنهم لم يقضوا وقتًا كافيًا بصحبتي ليصبح لديهم صورة متكاملة يحتفظون بها ثم ينقلونها لأبنائهم وأحفادهم. سأظل بالنسبة لهم ذكرى غامضة غائمة بلا ملامح أو تفاصيل. وهل يتذكر أحد أية تفاصيل عن آدم أبينا الذي أتينا من صلبه؟ كل ذكرياتنا عن أسلافنا الذين جئنا من صلبهم باهتة وغير واضحة. هم بالنسبة لنا لغز لا تكتمل في فضائه القطع ولا تستقر الصورة على شكل نهائي. لماذا لا أستطيع ببساطة أن أتذكر أبي؟ كيف يمكنني أن أجمع كل قطع اللغز الناقصة وأكمل الصورة النهائية فأراه؟ فقط أراه مرة واحدة أخيرة! قبل أن ينتهي كل شيء، قبل أن يتوقف كل شيء عن الحركة.

وقف **هاورد** في مدخل باب بيته يرتعد من البرد، مبتلًّا ومغطىً بالوحل. كانت التاسعة مساءً بعد موعد العشاء بأربع ساعات، وبعد موعد نوم ابنتيه دارلا وميرجوري وابنه الأصغر جو بساعة واحدة، بينما كان موعد نوم ابنه الأكبر جورج قد اقترب. يعمل جورج بعد المدرسة ويسهر ليؤدي واجباته المنزلية بعد عودته من العمل، والتي من بينها أن يأخذ أخاه الصغير ذا العشرة أعوام- لكنه يتصرف كطفل لا يتعدى عمره الثلاثة أعوام- إلى فراشه عندما يحين موعد نومه. وفي النهاية يؤدي فروضه المدرسية قبل أن يخلد إلى النوم. حين دخل البيت وجد عائلته على مائدة العشاء، وقد جلست الطفلتان في جهة والصبيان في جهة أخرى، وزوجته كاثلين على رأس المائدة، وفي مقابلها على الطرف الآخر مقعد هاورد الخالي وأمامه على الطاولة وعاء مملوء بطعام بارد، تمامًا مثل الأطباق الموضوعة أمام الأطفال مملوءة بالطعام البارد دون أن تمس. كان مرتبكًا ومجهدًا. لم ينتبه إلى الوقت تحديدًا لكن عرف أنه متأخر. شعر أنه محطم ومتعب وأن الدم في عروقه كاد يتجمد، وبأن دخوله على أبنائه بهذه الحالة كان دخولًا كئيبًا، وأنه تسبب في تخريب نظام البيت ومواعيد النوم والطعام الثابتة لعائلته، وظن أنه أخطأ ودخل بيتًا غير بيته يتناول أصحابه عشاءهم في التاسعة مساءً. نظرت إليه كاثلين دون أن تنطق. لم يعرف

إذا ما توقعت زوجته عودته في هذه اللحظة ورؤيته على تلك الشاكلة أم لا، أو هل انتظرت منه أن يجلس على المائدة بوحله ويومئ برأسه ثم يتلو دعاءه كالعادة ويقول لعائلته إنه لا شيء أفضل من التجمع معًا، وأن عليهم أن يحتفلوا بذلك، ويمسك سكينًا وشوكة ويبدأ في تناول الطعام البارد ويتظاهر بأنه ساخن، متجاهلًا غرابة الموقف بأكمله.. فجأة سحب جو إبهامه الذي يمصه من فمه وقال:

- أبي غارق في الطين!

حملقت دارلا في أبيها وصاحت:

- أمي، أمي، أمي!

أطلقت ميرجوري زفرة وقالت:

- أبي، أنت مغطى بالقذارة!

وعاد جو يكرر:

- أبي غارق في الطين! أبي غارق في الطين!

دققت دارلا النظر في أبيها الواقف بالممر المظلم أمام الباب، وصاحت من جديد:

- أمي، أمي، أمي!

علا صوت صياحها تدريجيًا، فنظرت كاثلين لهم جميعًا نظرة أخبرتهم بها دون أن تفتح فمها أن يلتزموا بالجلوس في مقاعدهم، ثم وقفت وذهبت إليه لتقوده إلى غرفة الغسيل كي تعطيه ملابس جافة وتنظف وجهه ويديه من الوحل. وقف جورج وقال لجو:

- أنت على صواب، جو، أبي غارق في الطين، لكن أمي تنظفه، ثم سنجلس جميعنا لنتناول العشاء.

وضع جورج على جو الغطاء الذي يلتحف به بعدما التقطه من الأرض حيث أوقعه أخوه حين رأى أباه. التحف جو بغطائه وعاد ليضع إبهامه في فمه ويكرر نفس الجملة بنطق غير واضح. بعد ذلك غمس جورج منديل دارلا في كوب الماء أمامها ليبلله ثم مسح به على جبهتها ليهدئها:

- كل شيء على ما يرام يا دارلا، كل شيء على ما يرام.

همست له:

- أمي عليها أن تفعل شيئًا، أمي عليها أن تفعل شيئًا.

أصدرت ميرجوري صفيرًا مصاحبًا لأنفاسها الثقيلة بسبب الربو الذي عانت منه، وخرج صوتها رفيعًا مزعجًا وكلماتها متقطعة، وواصلت شهيقها وزفيرها الثقيل دون توقف:

- حسنًا! أنا سآكل

مدت يدها إلى طبق البطاطس المهروسة الباردة، ورفعته ثم أفلتته بيد واهنة، وارتمت في مقعدها من جديد. قال لها جورج:

- أنت بحاجة إلى الاسترخاء في فراشك. سأحضر لك منشفة ومسحوق الاستنشاق، ولا تخشي أمي، فسوف أحضر بعض البطاطس والدجاج إلى فراشك لتأكلي.

انتهت كاثلين من تنظيف هاورد في غرفة الغسيل، وحين عادا إلى مائدة الطعام، جلس صامتًا يلوك الهواء في فمه. بدت وجنتاه حمراوان لامعتان من كثرة دعك كاثلين لها أثناء تنظيف وجهه. قال لها:

أتذكر أمي وهي تنظفني حين أصابتني أول نوبة، مثلما تفعلين الآن تمامًا.

انتهت من إغلاق أزرار القميص النظيف بعد أن ألبسته إياه، وقالت له

الآن يمكنك الجلوس مع أبنائك على مائدة الطعام لتناول العشاء.

حين انتهوا من طعامهم، ونظفوا الطاولة ثم ارتدوا ملابس

النوم، دقت الساعة العاشرة والربع. تصرفت كاثلين وكأن شيئًا خاطئًا لم يحدث على الإطلاق، متجاهلةً الساعات الأربع التي انتظرت فيها زوجها مع أولادها على المائدة أمام أطباق الطعام الباردة. وحين أدركت وصوله متأخرًا إلى ساحة البيت بصحبة الأمير إدوارد، قررت أن تتعامل مع الموقف وكأن هاورد وصل في موعد العشاء، ودفعت نفسها وأطفالها لإسقاط ذلك الوقت الضائع في الانتظار من ذاكرتهم جميعًا، ومن حياتهم من الأساس، بحيث لا يعانون في المستقبل من استدعاء الذكريات ذات الصلة بهذا الموقف. تكررت الحادثة بتفاصيلها بعد عام حين جلست كاثلين وأبناؤها ذات ليلة على مائدة العشاء أمام أطباق الطعام البارد في انتظار سماع صوت جلبة عربة هاورد وبغله بالخارج، لكنه هذه المرة لم يعد، ولم يظهر له أثر قط.

ما إن خلد كل من جو والفتاتان إلى النوم، ثم انتهت كاثلين من تنظيف المطبخ واتجهت إلى غرفتها لترتدي ملابس النوم، نادى هاورد ابنه جورج حيث كان جالسًا وقد عجز عن الحركة بسبب الخدر والقشعريرة في أطرافه من أثر أعراض نوبة الصرع. وبينما انشغل جورج بجمع كتبه وكتب أخته ليضعها في أماكنها، انتبه إلى والده:

- جورج، أنا....

- حسنًا، لا بأس

قاطعه ليطمئنه أن كل شيء على ما يرام، رغم درايته بأن لا شيء كان على ما يرام، وأن والداه اجتهدا ليتجنبا وقوع مشاجرة بينهما، وليؤكد له أنه لم ينتبه إلى الآثار التي تركتها نوبة الصرع على جسده، وأنه لا يعلم حتى بمرضه الغريب الذي تم التعتيم عليه وتداول أمره بين أفراد العائلة باعتباره مجرد إشاعات غير مؤكدة.. توجه جورج إلى غرفة نومه، بينما سار هاورد عبر طرقات البيت المظلمة نحو مدفأة غرفة الجلوس ووضع بعض فروع الخشب ليشعلها ويستدفئ بها، ثم ذهب إلى فراشه.

عند الفجر استيقظ الزوجان والأبناء جميعًا في نفس الوقت، والعرق يسيل من جباههم، إثر اندلاع النيران في موقد النار بغرفة الجلوس. اندفع الجميع إلى هناك كالسائرين نيامًا، ليجدوا الموقد الحديدي يضيء بقوة منصهرًا بينما شذرات النيران تبرق وتتطاير في الهواء.

*****

٢

الصباحات تنبعث من الظلام. تبدأ بتحضير العالم لاستقبال النهار كي تصبح السماء والأشجار في حالة ملائمة واستعداد لحمل الشمس حين تقفز فوقها. يصحو جورج مبكرًا ويملأ صندوق المدفأة بفروع الأشجار المقطوعة، ويصب الحليب في الدلو ثم يحمله عبر ساحة البيت إلى داخل المنزل، ولم يزل يساوره النعاس فيتخبط في ركبته. يوقظ إخوانه الذين يتململون ويتثاءبون في كسل، كارهين القيام في تلك البرودة من فراشهم الوثير الدافئ والقيام بفروضهم اليومية المعتادة. ترى الأم ميرجوري تتنفس بصعوبة في سريرها، وتفتح دارلا عينيها، وتقول:

- الشمس تأخرت في السطوع! الشمس تأخرت في السطوع! أنا متأكدة أنها أشرقت بالأمس أبكر من اليوم. أمي! هناك خطأ ما.

يسير جو بصعوبة في منامته، بعد أن وضع ساقيه في رجل واحدة من بنطاله، منتحبًا يطلب فطائر البان كيك بالعسل، إفطاره المحبب لنفسه. قالت الأم لجورج:

- أحضر الماء، أشعل النار.

حدّث جورج نفسه:

أثناء تلك الصباحات الباردة التي عشتها لم يفارقك وجع القلب، وقد تعلمت أن الحياة صعبة، ولا تمر بسهولة دون نزاعات وصراعات. وضعت نصب عينيك الاستسلام لإرادة الرب والتمست رحمته، ولفظت الشك في حكمته بشأن قدرك، وبأن حكمته لا بد جميلة، والثقة برجاحتها هي جزء من اليقين الأعظم. تذكرت تلك الكلمات التي طالما كررها والدك عليكم في البيت، أو استدعاها في المناسبات الدينية، وآمنت بها وأنت تقف في العراء بيدين مخدرتين تضرب فروع الشجر بفأسك، فأدركت أن ذاك الوجع في قلبك والألم في روحك يثبت أنك لم تزل حيًّا وإنسانًا ومنفتحًا على جمال العالم، وتؤمن بذلك في أعماقك برغم أنك لم تجن جرمًا في حياتك يجعلك تستحق ما تعانيه. وحين تنازع ذلك الوقع في قلبك وترفضه، تذكر أنك لا محالة ميت، وقريبًا سيواريك التراب.

استاء **هاورد** من ذلك الوجع في قلبه، استاء لأنه ظل يلازمه حين يستيقظ كل صباح. ويظل ملازمًا له حتى ينتهي من ارتداء ملابسه وتناول بعض قهوته. وقد يستمر شعوره به أثناء قيامه بتحميل بضائعه في العربة، وإطعام الأمير إدوارد قبل أن ينطلق في جولاته. وأحيانًا تصاحبه غصة ذلك الوجع في جولاته وحتى رحلة عودته، أو ربما تؤرق نومه وتقض مضجعه وتفسد عليه أحلامه. لقد استاء

من وجع قلبه لدرجة جعلته يكره ذلك الاستياء في حد ذاته، كونه يذكّره بأحزان روحه وهوانه، على الرغم من إيمانه بأن قدَر الإنسان هو أن يتألم. نازع الوجع لأنه كره فضوله وتدخله في حياته، وكره عدم مقدرته على تغيير قدره. فالألم صار نصيبه الحتمي، سواء أقبل على يوم سعيد أو يوم شاق، وسواء لاقى من الآخرين محبة وعطفًا أو تجاهلًا وإهانة، وسواء وقع ما أحزنه أو صادف ما أبهج قلبه.

صباح الاثنين، عقب يوم الجمعة الذي توقف فيه هاورد في حقل أطلال البيت القديم، حيث واتته نوبة صرع مفاجئة؛ أفاق منها متجمدًا مبتلًا وموحلًا وناسيًا كل شيء، وما كان منه حين تذكّر إلا أن أسرع بالعودة إلى بيته.. ظهرت عليه أعراض نوبة جديدة أثناء جولته في الغابة ليصبح عُرضة للسقوط فجأة برأسه فوق صخرة أو قرب جذع شجرة. سمع صوتًا يحدّثه:

- «أيها المغرور! ما تلك الأهمية غير المبررة التي تمنحها لنفسك؟ انظر لما فوق رأسك! إنها مجرد قبعة قذرة بالية. هل تظنه تاجًا؟ هل تظن نفسك ملكًا؟ كيف يمكن أن يعاني ملك متوج في حياته كل تلك المعاناة؟ أي نوع من الملوك يستحق هذا العذاب؟ عليك أن تسمو فوق آلامك فربما عندئذ يغير الرب خططه حول مسار حياتك. تاجك يختفي

أسفل قبعتك المتربة، ولكن هذا لا يمنع أنك مخلوق مميز. لتسمو وتحلق حيث الطيور في قلب السماء. أين أنت الآن؟ نعم، استمر، إلى أعلى. انظر الآن من فوق! هل ترى بيتك؟ بلدك؟ أمتك؟ نعم، أنت ترى الآن! حلق لأعلى أكثر إلى أن تصل لمدارات الكون الشمسية وتشتعل بينما تحلق. هل وجدت مكانًا مناسبًا ليصبح مملكتك حيث تحكم من عرشك على عربة الصابون؟ نعم، ربما يحتاجون إلى نحَّاس في المريخ. حلق أكثر! اعبر إلى ما بعد الكوكب الثامن الذي يطلق عليه ملك البحر. ستبلغ الكوكب التاسع الذي لم يعرف الإنسان بأمره بعد. حسنًا! أين أنت الآن؟ إلى أي بقعة من الكون تنتمي؟ أين أنت الآن حيث تقرع النحاس وتطرقه، ثم تتمرغ في تراب الأرض حين تسقط؟».

جلس أفراد العائلة في شرفة المنزل بعد عودتهم من الكنيسة نهار الأحد وقد صار الطقس دافئًا. امتدت الشرفة بطول واجهة البيت، وأحاط بها طوق كثيف واسع من الأزهار البرية، تنوعت بين أزهار الليس والكولومباين المسماة على اسم الملكة «آن»، ونباتات الهوكويد والسوسن والبلوبيلز. مالت أرضية الشرفة قليلًا من ناحية الباب الأمامي وإلى نافذة غرفة الطعام، فبدا البيت من زاوية الطريق كأنه ارتفع من جهة اليمين قليلًا، وشرفته كأنها ارتفعت من جهة اليسار، فصار كل طرف يشد الآخر ليبقى

البناء متوازنًا وراسخًا، وأعطى انطباعًا للرائي أنه أوشك على الانهيار.. لم تكن الشرفة مطلية، بل عليها طبقة سائلة من المعجون الأبيض الفضي تختفي حين تغيم السماء ويعتم الضوء، فيظهر لون الخشب بوضوح كأنه لم يُطلَ قط. كان هناك موطئ في أرضية الشرفة مَن يخطو عليه يشعر كأن الأرضية ستتحطم تحت قدميه. وُضع مقعدان خشبيان أحدهما قديم هزاز مطلي باللون الأحمر، جلست عليه كاثلين وهي تفصص البسلة أو تنقي الحبوب، وتصيح على جو الذي اختفى من أمامها وراح يعبث في ركن مخفي:

- تعال هنا في مرمى بصري!

بينما جلس **هاورد** في مقعد السلم القديم الذي لم يكن راكزًا على الأرضية المائلة، وظل سلمه ينفتح كل دقيقتين تقريبًا فيضطر أن يقف ويغلقه قبل أن يجلس عليه مرة أخرى. أما الأطفال فقد جلسوا إما على دلاء مقلوبة أو صناديق من الورق المقوى المستخدمة في تعبئة البضائع. يعثر كلٌّ من بدي وراسل (الكلب والقط) لنفسيهما على بقعتين مشمستين ليستلقيا مسترخيين. تساعد الفتاتان أمهما: حين لا تكون ميرجوري مستلقية في فراشها تُكابد أزمة ربو بسبب استنشاق الهواء المحمل بالأتربة أو رحيق الأزهار؛ فإنها تساعد أمها. وحين لا تطارد دارلا دبورًا أو

عنكبوتًا، فإنها تساعد أمها. يلعب هاورد وجورج لعبة الكريبدج الورقية:

- سبعة

- خمسة عشرة مقابل اثنتين

- أربع وعشرون مقابل ثلاث

- ثلاثون مقابل أربعين

- ابدأ!

- واحد وثلاثون مقابل اثنان

«لم يدوّنوا النتائج على لوح اللعبة بل اكتفَوْا بكتابة نتيجة كل دور على هامش صفحة القصص الكوميدية المصورة في الجريدة. قال أبي:

- جورج، أنا لا أجد لوح اللعبة

- كيف يا أبي؟ هذه مزحة، لا بد وأنه على الشرفة حيث تركناه آخر مرة.

تظاهرتُ أنني أساعده في البحث عن اللوح طيلة ساعة إلى أن استسلم، وتظاهرت أنا أيضًا بأنني أساعده في العثور عليه، ثم تظاهرت بالاستسلام، ثم استخدمنا ورقة من

جريدة قديمة لتدوين نتيجة اللعب. والحقيقة أنني سرقت اللوح ووضعته في كوخ بمنزل صديقي راي حيث نجلس وندخن ونلعب الكريبدج مقابل البلي أو رؤوس الحراب المسننة».

- خسرت خمس عشرة، وورقة الجاك اليمنى زادت ثلاثة.

- إذن فقد كسبتني مرة أخرى يا جورج. أشم رائحة غش، غش مضاعف!

- قم وأحضر أخاك يا جورج.. أحضره!

قاطعتهما كاثلين، فقام جورج مسرعًا من فوق علبة الورق المقوى

- لا تنظر في الأوراق إلى أن أعود

- لن أفعل

- هيا، سرا!

أطاع أمه وسار إلى ركن في الساحة الخلفية، وصاح مناديًا أخاه، ثم رآه محشورًا بين فروع شجرة ممسكًا بحفنة من الزهور. التقط حصاة وقذفه بها، فأصابت أذنه واندفع باكيًا. حدثه جورج بصوت عالٍ كي يُسمع والديه في الجهة الأخرى:

- أوه جو، لا تبكِ، سأخرجك من حيث حبستَ نفسك. جو، لا تبك، سأحضر لك ماءً لتمضمض فمك وتتخلص من مرارة الورود التي أكلتها.

ماذا عن القوارب الخشبية التي تطفو على وجه الماء البارد الشفاف؟ كم أسطولًا منها سبح في منتصف البحيرات حاملًا من النبات والطيور والحشرات ما يمكن حمله؟ إنها لم تكن سوى أحلام البشر في اليقظة، ثم تحولت إلى حقيقة طافية على الماء، تدفعها الأمواج ويهزها النسيم. ولكن ماذا عن القوارب التي صنعت لتُضرَم فيها النيران؟

ذات مساء عند غروب الشمس، وبينما كان **هاورد** يسير في الغابة قرب المنزل بعد العَشاء، رأى جورج راكعًا على الأرض في العراء يفحص شيئًا ما على الأرض. ولما لم يلحظ جورج وجوده، اختبأ خلف الأشجار بهدوء وراقب ابنه ليرى ماذا يفعل. وقف جورج فجأة وركض مسرعًا نحو البيت، حتى غاب عن نظر هاورد في الداخل ورأى باب الشرفة يغلق من خلفه، فتقدم إلى حيث كان ابنه واقفًا ونظر إلى الأرض ليجد فأرًا ميتًا. بدا أنه مات لتوه وقد جعل رأسه إلى الوراء، وأطرافه ممددة بعدما داس عليه جورج بحذائه الثقيل ذي الرقبة. سمع هاورد باب الشرفة يغلق من تلقاء نفسه مرة أخرى، ورأى جورج يخرج عائدًا إلى حيث وقف، فتراجع

واختبأ مرة أخرى خلف الأشجار. لف جورج الفأر بجريدة وحمله ثم وضعه داخل صندوق كبريت فارغ. شم هارود من مكانه رائحة كيروسين فأدرك أن ابنه غمس الجريدة في الكيروسين قبل أن يلف بها الفأر الميت.

كان ثمة بحيرة صغيرة وراء ساحة البيت بين الأشجار، اعتاد أن يتخذ سرب صغير من الإوز الكندي وزوجان من البط منها ملجأً من عام للآخر. لم يزد عمقها على خمسة أقدام، وأحيانًا كان جورج يصطاد منها سمك السلمون الصغير ويقوم بشوائه على نار أشعلها عند طرف البحيرة؛ لكنه كان في أيام السبت يفضل الصيد وقت الغروب حيث تفقس بيضات ذباب ميفلاي ودريك في بدايات الصيف؛ مما يدفع السلمون إلى الاقتراب من سطح الماء والقفز خارجه في الظلام ليتغذى عليها. وإذا هجمت الوطاويط على البحيرة لتلتقط الحشرات، يجمع جورج أغراضه ويرحل اتقاءً لأصواتها المزعجة، وقبل أن يقع أحدهم على شص الصنارة فيقطع جناحه فيضطر لترك كامل عدته والرحيل عن البحيرة بأقصى سرعة كي لا يعاني من صخب الوطواط الذي يناضل لتخليص نفسه. يرحل ببساطة تاركًا الوطواط ينعق، على أمل أنه إذا جاء في صباح اليوم التالي ليجمع أغراضه، سيجد أن ثعلبًا أكل الوطواط الميت دون أن يبتلع الشص ويحتضر هو الآخر، فيأخذ الصنارة ويرحل دون عناء.

وبدلًا من كل ذلك، فإن جورج ما إن يرى الوطاويط قادمة، حتى يجمع أغراضه ويشوي ما صاده من أسماك بينما يراقب الظلام بعدما حل إلى أن يسود، ثم يعود إلى بيته.

سار **جورج** إلى البحيرة، بينما تبعه هاورد متخفيًّا بهدوء، إلى أن وقف قريبًا من الماء وقطع غصنًا من شجرة بمطواة، ثم قسمه إلى أجزاء ربطها ببعضها بخيط ليصنع قاربًا طافيًا. وضع علبة الثقاب أو التابوت الذي يحوي جثة الفأر، وفوقه قطعة فحم أشعلها بعود ثقاب ثم وضع القارب على الماء وتركه يطفو. اشتعل القارب بأكمله فصار أشبه بكتلة نار سابحة على وجه الماء اضطرمت أكثر مع هبوب الريح، وانعكس الضوء على سطح الماء فبدا كالزيت اللزج الكثيف. انتبهت العثة الرابضة في العشب وحلقت في أسراب لتتجمع حول النار التي راحت تأكل التابوت حتى صار كتلة من الرماد انبعث منها دخان أبيض ظن هاورد أنه ما تبقى من جسد الفأر. دقق الأب في ظل ابنه المتواري في الظلام على مسافة من بقعة الضوء المشتعلة في البحيرة، وراقب ملامحه إلى أن انطفأت مع بقعة الضوء. تذكّر هاورد طقوس حرق جثث الملوك عند محاربي الفايكينج وهم يضعون الجثث على ألواح خشبية فوق قواربهم المبنية على هيئة تنين، ويُسيّرونها في البحر بعد أن يشعلوا الجثة بالشعلة، ويقفوا في وداعها حاملين سيوفهم بينما تتطاير ألسنة اللهب

في الهواء.

انتبه **هاورد** من شروده على حركة جورج الذي سار عائدًا إلى البيت، فبقي هادئًا في الظلام إلى أن يرحل، ثم تحرك هو الآخر ولكن ليس باتجاه البيت؛ وإنما مر به ثم واصل طريقه حتى خرج إلى الطريق الرئيسي، ثم التفت وأخذ طريقه مرة أخرى إلى البيت حتى إذا رأى أحدهم يظنه قادمًا من الجهة الأخرى؛ حيث اعتاد أن يتمشى بعد العشاء. وقف أمام مدخل البيت فرأى عبر زجاج النافذة جورج ودارلا وميرجوري جالسين على المائدة يؤدون فروضهم المدرسية.

- سأسدد ديوني بالعسل بدلًا من المال!

قال هاورد لنفسه، وقد تخيل في أحد أحلام اليقظة أن العربة تحولت إلى مملكة نحل تسير على عجلات.

سيكون هناك قوائم من النحاس تحمل العجلات، وترتكز عليها غرف خشبية مقسمة، فوق أعمدة راسخة. سيكون بتلك الغرف نوافذ تفتح على خلايا النحل، ينظر الناس من خلالها ويشاهدون النحل أثناء عمله، بينما أقف جوار العربة لأعطي محاضرات عن عادات الحشرات وكيفية الاستفادة منها في الصناعة وضمان ولائها. بإمكاني أن أحصل على سنتين من كل شخص، وسأجعل الأطفال يشاهدون العمل في الخلية مجانًا. قد ترسل المدارس عندئذٍ فصولًا بأكملها

من الطلبة في رحلات تعليمية إلى مملكة النحل، أو الأفضل من ذلك أن أذهب بنفسي في زيارات للمدارس، وأوقف عربة مملكة النحل في ساحات المدارس الخارجية للعرض على الطلاب. يمكنني أيضًا أن أزرع حوضًا من الزهور وأثبّته فوق العربة كي يجد النحل الرحيق بسهولة. ثم أسيّج غرف الخلايا بسور كي أجعل مسافة بين النحل والمشاهدين فلا ينزعج أثناء عمله بالخلية. ومن الممكن أن أضع كابينة خشبية فوق العربة بها أرفف أرص عليها برطمانات العسل والشمع والأقراص، بعد أن ألفها بشرائط لامعة جذابة. سأبدأ في البيع بعدما انتهي من إلقاء المحاضرة. وسأضع لافتة فوق غرف الخلايا مكتوب عليها «عرض النحل السحري»!

وعندما حل الشتاء، اكتفى هاورد بوضع العربة في الحظيرة ليحتمي الجرذان والقطط الشاردة من البرد القارص بالنوم في أدراجها.

أدرك جورج نوبة واحدة فقط من النوبات التي أشيع عن أبيه أنها تصيبه، حين مالت أمه على الجسد المرتعش في المقعد. لاحظ لعابًا في شعره ودماءً على ذقنه، وقد جلس يتلوى بأنفاس متلاحقة، محدقًا في راحتي يده بذعر وهو يقلبهما على الجهتين، ويحكهما بشكل متواصل كجندي انفجرت قنبلة بالقرب منه في أرض المعركة ثم لم يصدق

أنها لم تصبه وأنه لا يزال حيًّا. فهم جورج أن أباه أصبح معتادًا على الأعراض المسبقة للنوبة وأدرك التغيرات التي تقع لجسده أثناءها، وقد ساعده ذلك -بالتعاون مع أمه- في اتخاذ اللازم لينزوي في ركن ما في المنزل، بعيدًا عن نظر الأطفال، قبل أن تتفاقم الأزمة وإلى أن تنتهي، فلا يختبرون هذا الموقف بتفاصيله الصعبة. وإذا صادف أن تَبِعهم أحد الأطفال إلى حيث انتحوا بنفسيهما؛ تكتفي كاثلين بأن تطلب منه في هدوء بصوتها الرخيم الواثق أن يعود من حيث أتى مرة أخرى؛ بحجة أنهما منشغلان بأمر ما. كانت تلك هي النوبة الوحيدة المتفاقمة التي اختبرها الأطفال جميعًا (جورج وأخوه وأختاهما)، في عشاء عيد الميلاد المقدس عام ١٩٢٦. ليلتها اندهش الأطفال من طبق فخذ الخنزير الذي أعدته أمهم ووضعته على المائدة حيث كان أكبر فخذ خنزير رأوه في عشاء عيد ميلاد، وقد غطته بطبقة من السكر البني والعسل الأسود. جلس الكلب «بدي» متحمسًا ومحافظًا على هدوئه كأنه يثبت استحقاقه لأكبر قطعة لحم باعتباره أكثر الأطفال تأدبًا على المائدة. ضربته كاثلين بقدمها في أضلاعه ليهدأ ويبتعد؛ لكنه تجاهلها وظل رابضًا في مكانه. دخل «راسل» إلى غرفة الطعام ثم اتجه إلى ركن منها وجلس مواجهًا الحائط بينما راح يدعك مخالبه لافتًا النظر إلى حرصه على إبقائها نظيفة قبل الأكل.

وقف **هاورد** ممسكًا بالسكين التي حرص على سنِّها استعدادًا للمناسبة، وبدأ يشق الفخذ وهو يبتسم لأطفاله وزوجته التي توجهت إلى جورج بالحديث حانقة، تطلب منه أن ينبه أخاه للثبات في مقعده، ويهدد البنتين إذا لم يستقيما في جلستهما ويفردا ظهريهما؛ فإن الشوكة ستغرس في فخذيهما. انبعثت رائحة اللحم الشهي في الغرفة حين قطعه هاورد إلى شرائح، فانتبه الجميع إليه وتشوقوا لتناوله، حتى كاثلين التي تغيرت ملامحها وحل الإعجاب محل الامتعاض فيها، راحت تنظر إلى طبق اللحم بإعجاب للحظة. بعد أن قطع هاورد شريحتين، انتبهت كاثلين مرة أخرى للأطفال، وراحت توجههم إلى تقديم أطباقهم إلى أبيهم ليحصلوا على نصيبهم.

- جورج، خذ قطعة جو وقطّعها في طبقه. لا، قسّمها إلى قطع أصغر. سيبلع القطعة كما هي وربما تقف في حلقه وتخنقه. دارلا! كفّي عن الاستسخاف! خذي نصيبك من الفاصوليا ثم مرري الطبق للآخرين. هاورد! اجعل الشرائح أرفع من ذلك. فلا بد أن يكفينا هذا الطبق لأسبوع كامل بما أنك قبلت المقايضة على مال بضائعك بفخذ خنزير.

وضع **هاورد** في طبقه بعض البطاطس والفاصوليا وشريحة من اللحم، ولكن ما إن رفع الطعام إلى فمه ليأكل

حتى تَصَلّب فكه فجأة. أخذ شهيقًا بصعوبة حين بدأت رموشه ترف وعيناه تدور في حدقتيهما، ثم سقطت الشوكة بالطعام من يده في الطبق على الطاولة. تخبّطت ساقاه وهو يحاول النهوض؛ لكنه دار بجسده فقط وارتمى في المقعد فلم يحتمل ثقله ومال به ليسقط على الأرض جالسًا. أمسك بالمقعد المجاور له ونطحه برأسه.

- أمي! ماذا...

صرخت كاثلين في ميرجوري لتأخذ أخاها من مقعده إلى الخارج، ودفعت الثلاثة الصغار بعيدًا عن المكان، فاستجابوا مرتعدين وتجمعوا معًا عند باب الغرفة. عَلِقت كفها بين جسد جورج والطاولة حين سحبتها بعيدًا عن هاورد، وكان جورج عندئذ لم يزل جالسًا على مقعده رافعًا الشوكة في الهواء، فاغرًا فاه في بلاهة.

- جورج! اعطني ملعقة

نظر لها دون أن يتحرك، فعادت تكرر ما قالت بنبرة لا يشوبها الغضب أو الحزن، حافظت فيها على هدوئها على غير عادتها؛ حتى أنها كانت ألطف. ترك شوكته تسقط ونظف ملعقته من البطاطس.

- لا تزال...

- فقط اعطني الملعقة، جورج

خطفت الملعقة من يده وهو ينظفها ثم جرت وقفزت لتجلس فوق صدر زوجها ثم دفعت بالملعقة في فمه بين فكيه لتمنعه من عض لسانه. رأى جورج أباه يضغط بأسنانه على الملعقة وشفتاه مبرومتان إلى داخل فمه، وتخيل أن رأس أبيه صارت أشبه إلى جمجمة هيكل عظمي، منها إلى رأس إنسان أو بالأحرى رأس أبيه.

- جورج، تعال هنا وأمسك الملعقة كما هي

- ارتعب جورج من فكرة الجلوس فوق صدر أبيه.

- استخدم يديك ومِل بجسدك على جسده، وامنعه من أن يخبط رأسه في الأرض..

شعر بجسد أبيه تحته ينتفض، ونادى على أمه حين رآها تغادر الغرفة

- سآتي بعصا!

سمع جورج جسدها يخبط طاولة المطبخ، ووقع الأواني والطاسات تسقط منها على الأرضية في أنحاء المكان. تذمرت وهي عائدة بقطعة من الخشب الجديد الذي قام جورج بتقطيعه في نفس الصباح. بمجرد أن عادت، وجدت

أن يد الملعقة المحشورة بين فكي هاورد انكسرت، ثم سقط جورج على وجه أبيه، وقام بعدها محاولًا الإمساك به وتثبيته على الأرض؛ لكن يده انزلقت على بقعة من الدم تحت رأس أبيه. دفع جسده لأعلى ونظر لأبيه الذي أوشك على ابتلاع نصف الملعقة المكسورة فحشر أصبعه في فم أبيه ليخرج نصف الملعقة. تراجع جورج في نوبة ذعر حين عض هاورد أصبعه بقوة، ورأى دماءه تسيل من أسنان أبيه. هدّأت كاثلين من روع ابنها، وطلبت منه أن يمسك بقطعة الخشب بينما حاولت أن تباعد بين فكي هاورد بقوة.

- ماذا لو كسرت العصا فك أبي؟

- ضع العصا يا جورج الآن! ضعها من طرفها! أدخلها!

راح **هاورد** يخبط رأسه في أرضية الغرفة تكرارًا، ونجح جورج في إدخال العصا بين فكيه من طرفها، ثم أكملت كاثلين المهمة بأن دفعت العصا إلى داخل فمه أكثر بقوة، ودون تفكير سحبت وسادة أحد المقاعد الوثيرة ودفعتها أسفل رأسه بين خبطة وأخرى بسرعة. رفس هاورد أرجل الطاولة، بينما وقفت دارلا في باب الغرفة ترتعش، وميرجوري انقطعت أنفاسها من أزمة الربو، وأصدر جو صريخًا مكتومًا:

- أبي تحطم!

- انتهى الأمر، يا جورجي! كاد أن ينتهي يا حملي الصغير

«علا صخب حذاء أبي عالي الرقبة وهو يخبط به الأرض وأرجل الطاولة، تقافزت الأواني التي تعتليها وتخبطت، وسقط بعضها وتناثر أو تحطم (أكواب زجاجية، طعام، شوك، سكاكين، وغيرها من الأغراض التي تناثرت على الأرض). نبح «بدي» وزام خائفًا، وصرخ جو ودارلا من الرعب؛ بينما جلس أبي الذي كان في قلب المعمعة قبل لحظات هادئًا بشكل مريب، كأنه يحاول تركيز أفكاره أو تشتيتها ليتخلص من آثار الألم المستشري في أنحاء جسده. جلس مبتسمًا وقد كاد يقضم إصبعي بأسنانه قبل قليل، وشعرت أنه قضمه فعلًا من قوة عضته. رفعت أمي ذقنه لأعلى وطلبت مني أن أدفع العصا في فمه أسفل أسنانه الدامية. ذلك العنف الذي اختبرته وتسبب في إمراضي جعلني لا أجرؤ على إيذاء إنسان في حياتي بعد هذا اليوم. الدماء تناثرت من أصبعي في كل مكان، وظننته انقطع إلا أنني رأيته ينزف من راحتي. تناثرت الدماء أيضًا في وجه أبي ومن فمه، وعلمت أنها دمائي. أما دماء نزيف رأسه من أثر خبطها بالأرض حين سقط من المقعد على الأرض؛ فقد تناثرت على شعره وعلى أرضية المطبخ حيث كان راقدًا. رأيت «راسل» يهز رأسه وقد انتصبت أذناه واتسعت عيناه وبرزت حدقتاه، وانتفشت أنفه

المثلثة بينما لم يتوقف عن الشم بقوة وهو يحدق في الدماء على الأرض. وبدلًا من الاستسلام لمشاعر الفزع، حدثت نفسي بأن ما حدث الآن أمر واقع، ولم يعد شائعة، وقد شهدته بعيني. وعليه، فقد تأكدت أن أبي ليس مذؤوبًا أو وحشًا متحولًا، وأنني لست مضطرًا للهروب لحظة تحوّله».

شعرت كاثلين وهي ترقد في فراشها كأن سريرها تحول إلى جذع شجرة تتمدد منها الفروع والأغصان في ظلام الغابة، ورياح الشتاء تهب من حولها وتهز الأغصان العارية من الأوراق فيتأرجح السرير. استلقت بقلبٍ عارٍ في محاولة لاستعادة ذكريات الفصول الفائتة التي مرت عليها، يوم كانت امرأة شابة. إلى جوارها على السرير نظرت إلى زوجها الغارق في النوم في الجهة المقابلة كأنه نائم في كوكب آخر، وقد أعطاها ظهره وبدا جسده معتمًا خاليًا من الملامح في الظلام. لم يظهر من الفراش سوى رأسها الذي أبرزته من الملاءات، وكان شاحبًا كرأس البيضة. أدخلت الملاءة البيضاء النظيفة المفرودة بالمكواة في الفراغ بين ذقنها ورقبتها، وكانت مفروشة ومطوية بشكل مرتب أنيق كما علمتها أمها حين كانت فتاة شابة. كان شعرها معقوفًا ومثبتًا بدبابيس الشعر وقد غطته بقبعة صوفية حاكتها لها أمها منذ سنوات طويلة. تجاوز طول شعرها البني الداكن خصرها، ورغم ذلك لم تعتد أن تُسدله إلا عند غسله في الصيف مرتين كل شهر،

وفي الشتاء مرة واحدة كل شهر. أصبح على طوله هزيلًا ومتساقطًا حيث بدأ في الانحسار عند مقدمة الرأس.

فكرت وهي راقدة إلى جوار **هاورد** في جرح رأسه الذي قد ينزف ويغرق اللصقات الطبية فتتسخ الوسادة النظيفة. سمعتْ جورج يصر أسنانه في غرفته بعد أن سرى الصوت إلى غرفتها عبر الممر. لم ينكسر أي من أصابعه، فقط سيحتاج إلى غرزة أو اثنتين ليلتئم الجرح دون مضاعفات. فضّلت ألا توقظ الدكتور بوكس بمكالمة في ليلة الميلاد، ورأت أن تأخذ جورج إلى عيادته في الصباح بمجرد أن يستيقظوا. ذلك القناع الذي اعتادت أن ترتديه على وجهها لتظهر الجدية والصرامة يُخفي في حقيقته مرارة يستحيل أن يتخيل زوجها أو أحد أطفالها قدرها؛ فهي لم تتعافَ من صدمة حياتها كزوجة وأم، وتصحو كل يوم على حزن حين ترى أطفالها النائمين كالملائكة في أسرّتهم حين تذهب لإيقاظهم، ويملؤها الخوف من فقْد أحدهم؛ لدرجة أنها تعاملهم دائمًا من وراء ستار من الصرامة والانضباط لتحافظ عليهم. وقد استطاعت أن تقنع نفسها بقدر معقول -على مدى اثني عشر عامًا من زواجها- بأن هذه الحياة التي ترعى فيها عائلتها تشبع رغبتها في الحاجة إلى الحب الذي تظن أنها لم تحظَ به. فإذا صحت في أحد صباحات الشتاء القارص في يناير لتجد أحدهم مصابًا بحمى أو سعال شديد، لا تجلس

إلى جواره لتمسح على جسده وتدفئه بمزيد من الغطاء، أو تُعد له كوبًا من العسل بالليمون مثلًا؛ بل تُظهر حنقها للجميع وتُخبرهم بأن الإنسان خلق ليشقى، وأنها إن غفلت عن البيت وأخذت راحة من العمل كلما استيقظت مريضة؛ فسيصير كل شيء فيه رأسًا على عقب، ويصبحون كالطيور الملقاة في مهب الريح بلا عش يؤويهم. بعد ذلك ترمي للمريض ملابس جافة يبدل بها ملابسه التي تشربت بالعرق، وتطلب منه أن ينهض ليقوم بمهامه كالعادة، كأن يذهب لمساعدة أخيه في تقطيع الخشب، أو يساعد أخته في ملء الماء. أما إذا تباطأ، فترفع الغطاء عنه في الفراش وتصيح به:

- قم بدل ملابسك وإلا غمرتك بالماء

أقنعت نفسها آخر كل يوم من العمل في البيت، أن أفضل وسيلة تعبّر بها عن حبها لهم هو أن تنشئهم أقوياء؛ ذلك أنها لو استسلمت لشعورها بالاغتراب عنهم كأنهم لا يعنون لها شيئًا، وبأن ذلك الشعور هو ما يدفعها لمعاملتهم بهذا الأسلوب؛ لن تطيق تلك الحياة ولن تتحمل الاستمرار فيها. استسلمت للنوم تدريجيًا، وحلمت بين النوم واليقظة، بأسراب مُحَلقة وأعشاش فوق الأشجار. قررت أن تساعد زوجها المريض وتأخذ موقفًا حقيقيًا، وعليه سوف تستشير دكتور بوكس بعد أن يعالج جرح جورج. وفي الصباح التالي،

ارتدت ملابس الخروج مبكرًا، وكان الضباب كثيفًا على زجاج النوافذ الداخلي، ولم يظهر للشمس أثر في السماء. سألها هاورد مستغربًا:

- ما الأمر؟

- سآخذ جورج إلى الطبيب

- لم؟

- ليعالج العضة يا هاورد! عضتك لأصابعه

- العضة؟ عضة؟!

يبلغ المسير إلى دكتور بوكس مسافة ميلين للوصول إلى منزله الذي استخدم فيه غرفتين من الطابق الأرضي كعيادة طبية. خرجت كاثلين بعد طلوع الفجر، وسار ابنها خلفها على جانب الطريق بين الصحو والنوم، لا يشعر بشيء سوى البرد والألم في يده. شاهدًا خيط الليل يذوي ليحل محله شعاع النهار الأحمر يصعد السماء، تتبعه أسراب الغيم قادمة من الغرب تباعًا. قلقت كاثلين من ترددها في الحديث مع الطبيب حول زوجها، وخافت أن تتراجع عن قرارها. إلا أنها حين اقتربت من العيادة، عزمت أمرها وزاد إصرارها.. بلغا منزلقًا منخفضًا على الطريق الملتوي الذي ينتهي بالمدخل إلى ويست كوف حيث يقع المنزل. اعتاد المرضى -وغير

المرضى أحيانًا- الجلوس حول شرفة منزل الطبيب المكوّن من طابقين، كما أحبوا أن يفعلوا في الصيف، يتبادلون الشائعات، في انتظار الحصول على شَربة أمعاء أو ضمادة لثؤلول القدم. نظرًا حيث توقّعا أن يريا المشهد المعتاد؛ إلا أنهما تفاجآ باختفاء المنزل. غامت السماء واخترقها بصيص من الضوء حين توقفت كاثلين ونظرت حولها. هبت الريح المحملة بالجليد ولم تزل كاثلين تنظر حولها في تشكك رغم تأكدها من موقع المنزل الذي اختفى ولم يترك أثرًا سوى حفرة كبيرة في الأرض. كان محل الحفرة فيما سبق مخزن المنزل حيث وضع الطبيب معداته وأدواته الطبية من زجاجات الكحول والأربطة جنبًا إلى جنب مع برطمانات المخلل والمربى. الآن أصبحت مجرد حفرة في مهب الريح ممتلئة بالجليد المتساقط وغيره مما تحمله تيارات الشتاء.

- ماذا حدث يا أمي؟ هل اجتاح المكان إعصار؟

أثير الغبار والأتربة في موقع المنزل عند مدخل ويست كوف حيث لم تزل كاثلين واقفة تنظر إلى ما تَبَقّى من أساسات البيت، لكنها لم ترَ سوى البحيرة التي وقعت وراء الأشجار في ساحته الخلفية. عادت كاثلين أدراجها، ولكنها تراجعت واتجهت نحو الحفرة في تردد كأنها لا تعرف ماذا يجب عليها أن تفعل. ساورها الشك أن ويست كوف بأكملها

اختفت من على وجه الأرض، وأنها لو عادت أدراجها قد لا تبصر معالم الطريق، ولن ترى سوى أطلال المباني والبيوت بعد اختفاء المدينة بأكملها أو تراجعها إلى ما وراء الجبال في الشمال.

- هل تسمعين هذا الصوت يا أمي؟

كان هناك صوت قادم من وراء الرياح، وسمعته كاثلين فأمسكت بيد جورج السليمة وقادته ليعودا أدراجهما. لم تعرف مصدر صوت القرقعة الذي تردد من حولهما حتى أنها توقفت للحظات واسترقت السمع في محاولة لتحديد مصدره دون جدوى. لم يكن رغاء برق، أو صفير قطار.. سارت من جديد في طريق العودة وقبل أن تبلغ الطريق الملتوي، بدأت تتبين الصوت تدريجيًّا. سمعت رجالًا يصرخون في بعضهم البعض، واختلطت أصواتهم بأصوات حيوانات تزأر كالوحوش، وقد كان من المستحيل أن تخطئ التعرف على تلك الأصوات التي اعتادت عليها. لكن صوتًا واحدًا أكثر صخبًا وارتفاعًا وخشونة كان بين الأصوات ولم تتعرف على مصدره.

- أمي! هناك شيء ما حدث هناك!

أفلت جورج يدها وركض باتجاه الأصوات، فصاحت تناديه باسمه لكنه اختفى في زاوية الطريق. انهمر الجليد بغزارة،

فأحكمت كاثلين ربط وشاحها حول رقبتها، وشعرت بالبرد الشديد لدرجة أن أصابع قدمها تقلصت ورشحت أنفها. عند رأس الطريق الملتوي، وقفت كاثلين بعدما تجاوزت المدخل إلى ويست كوف ونظرت بارتياب خوفًا مما ستراه. تطلعت لرؤية المدينة كسائح يزورها للمرة الأولى قادمًا من الجنوب. يقع الطريق الملتوي فوق تل مطلّ من أعلى على المدينة ومن ورائها البحيرة الممتدة على الأفق. يغطي الجليد في الشتاء مساحات شاسعة تبرز وسطها رؤوس الجزر الأربعة التي تساءلت كاثلين ما إذا كانت ستظل بارزة وسط العاصفة، وأجابت نفسها بالنفي. لكنها لم تر المدينة والبحيرة؛ بل رأت لدهشتها منزل الطبيب بوكس محمولًا على ناقلات خشبية مستندة على جذوع شجر ضخمة في منتصف الطريق. تُدفع الناقلات على مسافة قدم وتتوقف ثم تدفع لقدم آخر، وحولها يقف رجال يرتدون معاطف صوفية وقبعات معدنية لحماية الرأس. علت أصواتهم وهم يحملون المطارق الثقيلة والعتلات. وراء ناقلات المنزل وقفت شاحنة تحمل في صندوقها الخلفي معدات ثقيلة.

وقف جورج بين أمه والمنزل، والتفت إليها فمدت يدها إليه. سارت إليه ومن ثم أكملا المسير على جانب الطريق الموازي للناقلات، بالقرب من حافة الحفرة العميقة. تجاهل الرجال وجودهما، إلا حين اعترضت كاثلين طريقهم فأومأوا

لها. تحركت الناقلات ببطء، وظنت كاثلين أنهم سيستغرقون وقتًا وجهدًا كبيرين لتحريكه.

حين صارت على مقربة من الناقلات، لاحظت قاطرتين تجر كل واحدة منهما ثمانية ثيران ضخمة مقيدة بسلاسل كبيرة، ويقودها رجل يحمل سوطًا، يجلدها على ظهورها بينما لا يتوقف عن السباب. وكلما ضرب الثيران، شدت السلاسل بقوة لتهتز نوافذ المنزل في أطرها مع صعوبة حركة الحمولة وثقلها. صاح الرجل ذو السوط:

- قفوا مكانكم يا كلاب!

توقفت الثيران الثمانية عشرة فجأة كأنها تقوم بعرض فقرة في السيرك، واستجابت لأوامر مدربها. تعرفت كاثلين على عذرا موريل، ابن صديق جورج راي موريل، قائد قطيع الثيران. ورأت أيضًا دكتور بوكس الذي وقف على جانب الطريق يراقب العمل الدائر وقد ارتدى مثل باقي الرجال معطفًا وقبعة؛ بخلاف أن قبعته ونظارته كانتا من خامة أفضل. أما النظارات فهي التي ارتداها دائمًا لعلاج نظره بحكم عمله كطبيب. أما القبّعة فقد اشتراها من محل في لندن كان من زبائنه الدائمين حتى أن المحل احتفظ بمقاس رأسه عن طريق رأس خشبي مصمت مصبوب على قياسها. وكل عام كانت تُصنع قبعة جديدة للطبيب الذي يسكن على

بُعد أميال طويلة. وإذا حدث وهو يرتدي قبعته أن نسيَ مكان أدواته ذات يوم (سماعته أو غيرها)، قال لنفسه لا بد أن الرأسين قد تبادلا موقعيهما، فطارت الرأس الحقيقية إلى لندن، بينما ارتكزت على جسده في ويست كوف الرأس الخشبية بدلًا منهما. لكن المعطف الذي ارتداه كان نفسه الذي ارتداه الآخرون، وكذلك الحذاء ذو الرقبة العالية التي تصل للركبة. تدخّل بين حين وآخر بتوجيه العاملين كلما أخرج مبسم الغليون من فمه، ليقول «أحسنت يا ولد!»، أو «بحذر يا رفاق! فالسيدة بوكس ستقتلني لو أن أمرًا سيئًا أصاب قلعتها». رأى الطبيب كاثلين وابنها قادمين على جانب الطريق، فانتبه وتراجع خطوتين للوراء احترامًا لمرورها، وانحنى قليلًا، ثم أفسح لها الطريق ليمرا من أمامه، ثم بادر بتحية جورج.

- تفضلي يا سيدتي! تفضل أيها الرقيب العسكري! نحن نقوم بنقل المقر الرئيسي إلى موقع قريب من الطريق الممهد.

- أعتذر لك دكتور لأنني قاطعت عملكم بزيارتي.. الأمر أنه بالأمس....

وقفت تشرح له وهي تستند بيديها إلى كتفي جورج، فاتخذ الطبيب وقفة رسمية ليوحي بأنه الآن يستمع إليها بصفته طبيبًا محترفًا. وقبل أن تكمل حديثها، لاحظ الرباط

الملفوف على أصابع جورج، فقاطعها ليحدثه:

- حسنًا أيها الجندي، هل أصبت في صفوف المعركة؟ دعني ألقي نظرة.

دفعته كاثلين ليخطو للأمام ويقترب من الطبيب كي يفحص يده، ففعل وعرض عليه الجرح في استحياء.

- لا تقلق، أيها الرقيب! سأتعامل مع جرحك بحرص

أزال الرباط ونظر في الجرح ثم أطلق صفيرًا باندهاش

- هل تمكن منك الكلب أيها الجندي؟

نظر جورج إلى أمه فأجابت نيابة عنه

- حسنًا، لقد كانت حادثة. نحن لم....

- أخشى أنك ستحتاج إلى غرزة أو غرزتين في الجزء العميق من الجرح. لم يطل الأمر عظام أصابعك، ولكنك ستتألم لبعض الوقت أو ربما لوقت أطول قد يستمر إلى أن تصبح رجلًا عجوزًا. مَن الكلب؟ سنحتاج عينة منه للتأكد أنه غير مصاب بداء الكلب.

- هذا هو الأمر الذي أردت إيضاحه يا دكتور. هل يمكنني...؟ هل يمكننا...؟

رفع الطبيب رأسه ونظر إليها

- نعم، نعم سيدتي! بالطبع!

أعاد الرباط إلى يد جورج

- أيها الجندي، أحتاج للحظة نتحدث فيها أنا ووالدتك. تعال معي، سأبقيك في مكان دافئ.

ثم استدعى سائق الشاحنة المتوقّفة وراء المنزل، دان كوبر، وهو يدفع بجورج من ظهره ناحيتها.

- داني، هذا الجندي جرح في المعركة، دعه يجلس إلى جوار النافذة داخل الشاحنة.

كان «دان» جالسًا داخل الشاحنة أمام عجلة القيادة ينظر عبر نافذتها ويدخن سيجارة، فنظر للطبيب ثم ترجل عن الشاحنة ليفسح المجال للمصاب.

- تفضل يا دكتور، الشاحنة كلها لك.

- تفضل أيها الرقيب، ثوان قليلة وسننتهي أنا ووالدتك من حديثنا.

دعا الطبيب جورج لدخول الشاحنة، وساعده للجلوس في مقعد الراكب. وجد جورج المكان دافئًا حين جلس على المقعد الجلدي وشعر بزنبركات المقاعد الداخلية البارزة

تحته، ونظر في أنحاء الشاحنة حيث كان هناك جرائد وأوراق متناثرة، وكوب قهوة تفوح منه رائحة قوية. راقب العاملين على نقل البيت والثيران التي تدفع الناقلات من خلف الزجاج الذي تبخر الضباب على سطحه الخارجي. تذكر قصصًا رواها له والده عن صرخات البحارة التي تُسمع من سفن الأشباح المهجورة الراسية على الشطوط الصخرية عند الساحل منذ مئة عام في الليالي الضبابية. تحدثا لعشر دقائق، ثم رأى جورج أمه قد أحنت رأسها وخبأت وجهها بيديها. لأول مرة رأى أمه تبكي وعرف أن الأمر بشأن حالة والده، وأنه خطير. احتضنها الطبيب بذراع واحدة ليخفف عنها، وربت على ظهرها مرتين ثم تركها. سار باتجاه الشاحنة فنظر جورج إلى أمه من وراء الطبيب، وجدها تجفف دموعها بأحد أكمام معطفها، وهزت كتفيها كأنها تنفض الألم بعيدًا، حدقت عاليًا تجاه السماء للحظة. فتح الطبيب باب الشاحنة وتحدث إلى جورج:

- حسنًا، أيها الرقيب، سنذهب إلى المدينة لنعالجك.

قفز **جورج** إلى خارج الشاحنة وسار تجاه أمه ليرى وجهها الوردي وعينيها المحمرتين، فابتسمت له وأخذت بيده، لاحظ للمرة الأولى أن أمّه لا تزال امرأة شابة.

- كل شيء على ما يرام يا جورج

أشار الطبيب لدان كي يعود ليقود الشاحنة، فصعد إليها مع رجلين آخرين، ثم عاد إلى كاثلين وجورج:

- جاهزون؟

- هذا المشهد محزن.. أزيل منزلك ووضع في وسط الطريق.

عادت كاثلين تنتحب مرة أخرى بعد ما قالته للطبيب:

- هوني عليك، سيدة كروسبي. أيتها المسكينة، لا تقلقي، سنتعامل مع الأمر لا شك؛ فقد حان الوقت لنفعل شيئًا. سنهتم بكل شيء.

وقفت كاثلين تقطع عروق الخشب وهي ترتعد من البرد؛ في حين غاب هاورد عن المنزل حيث خرج في إحدى جولات عمله. في الردهة، جلست الفتاتان تقومان بأعمال النسج بالإبرة، وتراقبان «جو»؛ بينما انهمك في حديثه مع أورسولا، سجادة من جلد دب عاملها على أنها أحد حيوانات المنزل الأليفة. خلد جورج للنوم في فراش أبويه بالدور العلوي. واستمرّت الرياح المحمّلة بالجليد في الهبوب، فقالت كاثلين لنفسها إنها ستهدأ بحلول الليل، وتصبح نسائم حلوة. كان الجليد ما بين هش وصلب، لكنه ظل لطيفًا. أشرفت الشمس على النزول والغياب، واختفت خلف الشجر في

الساحة الخلفية، لتلقي بظلالها على أغصانه التي أشعت بالضوء كأنها تبعث من داخلها. تحول الغسق من اللون الأحمر الدامي إلى الأزرق المعدني حين انقشع عن السماء تدريجيًا، وهبط السواد على الأشجار التي كانت تشع بالضوء منذ قليل، فخطر على بال كاثلين أن تلك الأشجار تشبه عقل هاورد، يضيء فجأة وينطفئ فجأة. يضيء ويشع براقًا. تساءلت عن قدر الضوء الذي يحتاجه العقل ليضيء. ربتت براحتها على جيب معطفها لتطمأن إلى وجود النشرة الإعلانية التي أعطاها لها الطبيب بوكس لمشفى إيسترن مين ستيت في مدينة بانجور المنشأة فوق تل هيباتيكا الذي يطل على نهر بينوبسكوت الجميل. تذكرت لحظتها أن ذلك المشفى سمي من قبل (مشفى إيسترن مين للأمراض العقلية). لكن الصور التي رأتها في النشرة أظهرت مكانًا نظيفًا مرتبًا في موقع شاسع على أرض مشمسة. تضمّن المبنى أربعة أجنحة، فبدا لها المكان كأنه فندق فاخر، وهو ما أراحها وأبعد عن مخيلتها ذنب نقله إلى هذا المكان وقسوة هذا القرار. اكتشفت أن النشرة ليست في أي من جيبي المعطف، فاعتقدت أنها تركتها في الغرفة حين وضعت جورج في فراشها.

تكوّر **جورج** على نفسه ممسكًا بيده المجروحة وقد استغرق في النوم، يحلم أن كلبًا ضخمًا انقض بأسنانه على

يده المربوطة، نظر في عينيه نظرة جعلته يفهم أنه لو حاول تخليص يده من فك ذلك الكلب فإنه سيعضها لا محالة. وقف الكلب متجمدًا في مكانه، دون أية رغبه في التحرك أو الذهاب ليأكل أو يشرب، فأرعبت جورج فكرة أنه قد يضطر للسكون في مكانه هو الآخر بقية حياته. حين أصابه الهلع، سحب يده للوراء فتحول فك الكلب إلى فخ كبير أغلق فكيه فجأة على يد جورج فاستيقظ من النوم مذعورًا. بحث عن أمه وقد سرت برودة الغرفة المعتمة في أوصاله، ولم يعد هناك دفء سوى ذلك الذي تركه جسده على الفراش. حاول أن يستدفئ أكثر لكنه كان راقدًا فوق الأغطية المطويّة، فنادى على أمه متململًا وأسند جسده على مرفقه ونظر إلى يده المصابة، فتهيأ له أنها تضيء كأن الأربطة من خيوط فسفورية، وشعر بأن ضغطها على أوردته حقنت الدماء في راحته، فتألم وأراد أن ينادي أمه مرة أخرى؛ لكنه قبل أن يفعل سمع صوت نقر الخشب في ساحة البيت الخارجية. جعله الجو البارد والظلام المنتشر حوله يشعر أن أمّه تقطع الصخر بدلًا من عروق الخشب.

استمر في سماع صوت تكسير الصخر وشعر كأنه سيبقى متألمًا متجمدًا في هذا الفراش للأبد كما شعر في الحلم. وظن لو أنه رقد في حجرها واستدفأ براحتيها وأنصت إلى صوتها الهادئ يطمئنه لكان أفضل، ولخفف ذلك من آلامه. قام

ليجلس فوق السرير وتدلت ساقاه من أحد جوانبه، ثم وقف وتحسس خطوه على أرضية الغرفة المظلمة محاولًا تجنب التعثر والوقوع. رفع الذراع المصابة لأعلى وهو يعبر الغرفة إلى الباب كأنه يتهيأ لعبور النهر، وتلمّس الطريق بالذراع الأخرى، إلى أن بلغ منضدة الزينة الخاصة بأمه القريبة من الباب، ليفتحه ويخرج إلى ظلمة أكثر سوادًا. تحسس سطح المنضدة إلى أن أمسك بالمصباح الموضوع فوقه، وأشعل ثقابًا من الصندوق المجاور له بصعوبة، ثم أضاء المصباح وأعاد الغطاء الزجاجي. أضاء سطح المنضدة، ورأى انعكاس صورته في زجاج المصباح، ثم أبصر النشرة الإعلانية وصور المبنى الذي يبدو كالمدرسة، لكنه قرأ المكتوب على واجهة المبنى، مشفى إيسترن مين ستيت. تذكر أن الطبيب أعطى أمه تلك النشرة بعدما انتهى من خياطة الغرز الأربع التي لم تؤلمه في البداية.

قرأ الجمل المكتوبة أسفل الصور: «دار الرعاية الأفضل للمرضى العقليين والنفسيين من سكان مين الشماليين والشرقيين». أضاءت الغرفة بأكملها من الأرض للسقف بضوء المصباح، وفتح جورج النشرة وواصل القراءة: «يتخلص المرضى في المشفى من سموم الحياة المدنية الحديثة التي تسبب ضغوطًا على الإنسان تودي به في أغلب الأحوال إلى الجنون. يستمتعون بجلسات الهيدروثيرابي، وفترات

الراحة في الفراش، ويشاركون في حصاد المحاصيل وتربية الخنازير، وأيضًا في أعمال النجارة وتنظيف وتجفيف الملابس....

- لا عليك يا جورج، اترك هذا واهبط معي لتتناول العشاء

- لم يلحظ جورج اقتراب أمه منه أثناء انشغاله بالقراءة، وبمجرد أن رآها انهار جسده وشعر بالألم في كل ذرة منه، وأصابته ارتعاشة الحمى. كل تلك الأعراض ظهرت عليه فجأة بعدما انفضح أمره وهو يقرأ النشرة. وحتى أمه انهارت فجأة من أثر التعب طوال اليوم منذ رحلة زيارة الطبيب، فشعرت بالتعب والبرد والجوع ونفاد الصبر.

- هذا ليس مكتبك لتفتش في محتوياته!

خطفت النشرة من يده، ودفعته إلى خارج الغرفة في اتجاه الدَرَج.

- اذهب وأحضر أخاك إلى طاولة الطعام، وأخبر أختيك أن يصبا الحليب في الأكواب! اذهب!

- حسنا يا أمي!

منع نفسه من الانفجار في البكاء، وتحامل عليها ليهبط درجات السلم، في حين طوت كاثلين النشرة وحشرتها في

فردة شراب صوف، ثم خبّأتها أسفل أحد الجواكيت الشتوية في آخر درج من أدراج مكتبها. تناولوا العشاء في هذه الليلة عند السابعة بدون هاورد، وحين انتهوا جلست كاثلين في الكرسي الهزاز أمام المدفأة تحيك ملابس جو. لعبت دارلا وميرجوري بدميتيهما، متظاهرتين بأنهما سوزان بي أنتوني وبيتسي روس تعدان الشاي لكل من جورج واشنطن وأندرو جاكسون. وضعت دارلا سوزان أمام بيتسي التي جلست بالفعل على مائدة الشاي، وانشغلت بترتيب محتوياتها بعناية. جعلت دارلا سوزان تنحني لبيتسي حين رأتها، وتقول:

- عام جديد سعيد بيتسي

أوقفت ميرجوري بيتسي لتجيب بلباقة

- وليكن عام ١٩٢٧ سعيدًا عليك يا سيدة أنطوني.

تدخلت دارلا وقالت لميرجوري

- لا يا ميرجوري، إنه عام ١٧٧٦

جلس جورج على الأريكة ممسكًا بكتاب عنوانه «الصبي مارك بائع الثقاب»، وأسنده على حجره مفتوحًا لأعلى بيده المصابة، وبالأخرى أمسك بتفاحة. حدق في الكلام المطبوع لكنه لم يقرأ لأنه شرد في أمر أبيه المجنون الذي عض

أصابعه بشراسة وأوشك أن ينقل إلى بيت مجانين، حيث سيُنقل أخوه جو أيضًا، سواء عاجلًا أو آجلًا كما توقع. في الردهة، فُرشت سجادة قديمة مجهولة المصدر ومصنوعة من جلد الدب في أحد جوانب الغرفة، يجلس عليها الأطفال في الليالي الباردة حين تتجمع الأسرة مساءً، ويتظاهرون بأنهم يمتطون ظهر أحد دببة السيرك. أطلق هاورد على السجادة الرثة البالية اسم أورسولا حيث كان لها رأس دب أصلع بمحجرين فارغين بعدما سقطت الحدقتان الزجاجيتان، وربما لم يكن هناك عيون زجاجية بالأساس. إلا أن جو وضع البلي الزجاجي في الثقبين الخاويين الشتاء الماضي، فأصبح للرأس عين خضراء ذهبية مختلطة بماء أبيض تبدو كأنها معدومة البصر، وأخرى سوداء معتمة جعلته يبدو كرأس دب حي لكنه أعور.

قضم جورج تفاحته وهو يشاهد جو ممتطيًا ظهر السجادة متظاهرًا بامتطائه ظهر دب، حتى وجده يلف بجسده مرة بعد أخرى مبتعدًا عن السجادة كأنه سقط عن ظهر دابته ودار على نفسه في الأرض. صاحت أمه:

- كفاك صخبًا يا جو!

قفز جو في الهواء ليقف على قدميه، وذهب إلى جورج مبتسمًا، ثم حدثه وهو يشير إلى السجادة

- جورج! أشعر أن أورسولا يضمر النية لأن يعضني

انتظر جورج إلى يوم السبت كي يتمكن من الهروب. أسرج الأمير إدوارد إلى عربة أبيه وقاده إلى الطريق سائرًا إلى جواره، وقد أطبق بيده على اللجام بينما همس في أذنه أن يسرع السير ويقلل الصخب في حركته. حين اختفى منزله على الأفق، ركب العربة وشد اللجام وأمره أن يسرع. لم يفعل مثل والده الذي كلما أراد أن يحث البغل على الحركة طرقع بلسانه واستند على سرجه؛ بل حاكى أسلوب والد صديقه راي موريل، السيد عذرا، الذي تَميز بلكنته الغريبة التي لم يفهمها جورج أبدًا ولا سمع مثلها في حياته. امتلك الرجل ستة عشر ثورًا، وقادها جميعًا بكل سهولة، بلغته المختلفة وبكلمته المميزة التي لم يسمع جورج أحدًا غيره يقولها:

- إررررر! تحركوا أيها الفتية، تحركوا يا كلاب!

لذا، صاح جورج في الأمير إدوراد

- هيا يا فتى!

بالكاد ينتبه ويشرع في الإسراع بالخطى، ثم يبطئ أكثر من ذي قبل، وكأن ارتباكًا أصابه نتيجة التغير المفاجئ في روتين عمله، أو بالأحرى تغير قائده. كل الظروف كانت ضد

جورج؛ من بينها طقس صباح العطلة المشمس، وإيقاع البغل الناشز في السير، وثقل العربة الذي زاد الأمر سوءًا. جميعها أبطأت تقدم جورج، وتذكر كيف قضى أيامه الأسبوع الفائت في المدرسة، وكذلك عطلته حين تنزه في الطبيعة وسبح في البحيرة، وراقب الأشجار العالية تتمايل كلما انعكس عليها الضوء من السماء، والكلاب تطارد بعضها، والقطط تقف على حافة البحيرة لتشرب. شعر وقتها أنه جزء من تلك الطبيعة بمياهها وأشجارها وحيواناتها. والآن، يجلس فوق عربة بحجم منزل تصدر صخبًا كحقيبة سفر مليئة بالصنوج الموسيقية الشرقية. تساءل لأول مرة عن ماهية البضائع المخزنة في أدراج العربة، واكتشف أن فكرته عن البضائع التي يبيعها والده محدودة، فقد ظن أنه يبيع الفُرشاتِ ورؤوسَ المساحات، والأواني والغليونات، والجوارب وحمالات البناطيل، وكذلك ملمع الأحذية. وهكذا ارتبطت الصورة الذهنية للعربة لدى جورج بتلك البضائع دائمًا، ليدفعه الفضول في تلك اللحظة إلى استكشافها. قال لنفسه:

- لا أدري أي نوع من الخشب صُنعت منه تلك الأدراج!

حين اقترب من الطريق الملتف المؤدي إلى مزرعة صديقه راي موري، اتخذه جورج بدون تفكير، ما إن وصل إلى حظيرة معمل تجفيف وتمليح اللحم التي تحولت الآن إلى

مخزن للأدوات والخشب والحديد، وغيره من الأغراض التي لم تعد مستخدمة أو صارت بالية وغير صالحة للاستخدام. يقوم والد راي -باعتباره فلاحًا بخيلًا مثل معظم فلاحي تلك الناحية- بإصلاح تلك الأغراض المخزّنة من أجل استخدامها أو إعادة تدويرها لاستخدامها بشكل أو بآخر. الطريق الملتف يتصل بآخر يؤدي في نهايته إلى المخزن حيث اعتاد أن يلتقي بصديقه ليدخنا ويلعبا الكريبدج(4) ويتبادلا الحكايات والنكات بعد الانتهاء من مهامهما لدى والد راي، مثل حلب البقر، وكنس ساحة المنزل، وغالبًا إطعام ورعاية الثيران العملاقة.

رغم أن راي بلغ الثانية عشرة، كان له شخصية رجل أعزب متقدم في السن وصعب المراس. اهتم بأمور لا تناسب عمره مثل جمع العملات التذكارية، واعتاد مذاق مشروب الجين الرخيص الذي يشربه والده ويخزّن منه في قبو المنزل، وتفوح منه رائحة زيت التربنتين الفجة. حتى بعد سنوات طويلة حين أصبح لديه مال يمكّنه من شراء نوع أفخر من الجين، استمر في تجرع نفس النوع الرديء حتى انهارت كبده المتورمة. روّج لفكرة أن اعتياده على هذا النوع يرجع لحياة الفقر المدقع التي عاشها منذ طفولته باعتباره ابن فلاح مسكين، وأنكر إدمانه للذكريات المرتبطة بتناول هذا

الشراب مع صديقه الحميم جورج واشنطن كروسبي، أيام لعبا معًا الرماية بالأسهم على اللوح بعد المدرسة، مما يجعله غير قادر على تغييره أو التخلص منه.

عُرف عزرا في أنحاء البلاد وما يحيط بها بالرجل المطلوب لتنفيذ مهام سحب الأغراض الضخمة. ومن ثم صار خامة مناسبة لحياكة قصص مضحكة وإطلاق العديد من النكات الخبيثة. بلغ ارتفاع أصغر ثيرانه ستة أقدام أو أقل، وأطولهم سبعة أقدام ونصف. تلخص شغف عذرا في شيئين فقط، أحدهما الثيران والآخر كرة البيسبول. وقد تتبع أخبار تلك الرياضة في الجرائد أسبوعيًّا، ووجد متعته في مشاهدة اللاعبين وهم يرسلون الكرة بالمضارب، تمامًا كما وجدها في ضرب الثيران بالسوط ليحثهم على العمل. اعتاد تسمية كل ثور جديد يشتريه على اسم بطل بيسبول جديد، وكلما جلد ثورًا، ناداه باسمه، مثل إد ديلانتي، إلمر فليك، جورج ستون، تريس سبيكر، جورج سيسلر، هاري هيلمان، بيب روث، أو واحد من مجموعة نابليون لاجوي الثلاثية. امتلك عددًا من الثيران تجاوز أعداد الأبطال المشاهير؛ فقرر أن يسمي أكثر من ثور باسم بطل واحد؛ على أن يميز كل واحد فيهم بالسنة التي حقق فيها بطولة، أو برقم من أرقام المجموعة. مثلًا:

- تحرك يا نابليون واحد! أيها الكلب! وأنت هناك، ليس هذا

جهد مقبول من عام ألف وأربعمئة واثنين وعشرين. أدِّ عملك.

تجاهل «عذرا» الاهتمام بالحديث عن اللعبة مع غيره من الأشخاص المهتمين، كأي مشجع لأي لعبة رياضية. حين تجرأ وسأله راي ذات يوم عن رأيه في أداء أحد لاعبيه المفضلين في المباراة الأخيرة، قرص أذنه وأخبره أن ينتهي من أعماله في المنزل ويبذل جهدًا كما يبذل الثور الذي سُمي على اسم البطل الذي يسأل عنه.

حين وصل جورج إلى المخزن، ربط الأمير إدوارد إلى شجرة مقابلة. كان الجو في المخزن أبرد من الجو خارجه. تسللت أشعة الشمس عبر فتحات السقف والجدران الخشبية، وسقطت على أرضية المخزن لتصنع أشكالًا هندسية من الضوء والظل، وتدلت بعض أسياخ التمليح من العوارض الخشبية، كما بقي عش مهجور لطيور السنونو ملتصقًا بأحد الفراغات بين الألواح، وأسقط على الأرض أسفله حفنة من الأتربة. فجأة أحس جورج أنه أخطأ الواجهة، وأنه إذا أراد الهرب حقًّا، فهنا هو آخر مكان وجب أن يتوجه إليه. فالهروب يعني الرحيل إلى أبعد ما يمكن. الحق أنه لم يسبق له الرحيل بعيدًا قط، فلا هو أقدم على الرحيل إلى فرنسا كي يشارك في الثورة، أو فورت سمتر(5)، أو إلى الإمبراطورية الرومانية. فكّر في بوسطن على بعد ثلاثمئة ميل جنوبًا

كاختيار محتمل، وتذكر أنه لا يعرف شيئًا عن معالم الطريق من هنا إلى هناك.

بحث **جورج** في كومات الرماد بين البراميل الثلاثة التي وضعها هو وراي ليستندا عليها وهما يلعبان الكريبدج عن أعقاب سجائر لتدخينها، ولم يجد ثقابًا فأعاد الأعقاب إلى الكومة.

لعبا على اللوح الذي أخذه جورج من البيت. كان هناك باب خشبي قديم ضخم بلا مقبض أو مفصلات من بقايا منزل عائلة بادن المحترق، صُنع من خشب البلوط، وارتكن إلى الجدار المقابل؛ بينما جلس الصديقان يدخنان ما توفر لهما، أيًّا كان، ويلعبان لعبتهما المفضلة.. ذكرهما الباب المحترق بأحداث شتاء العام السادس بعد الألف وتسعمائة، واستدعيا الحكاية المأثورة التي تداولها أهل المدينة عبر السنين. يوم أن انهمر الجليد وبلغ ارتفاعه عن الأرض اثنا عشر قدمًا. فأقدم السيد بادن على حرق منزله بالكيروسين، وحاول الجيران والإطفائيون التطوع لإخماد النيران، وعبورها لإنقاذ السيدة بادن وأطفالها وإخراجهم من المنزل. وحين أدرك المتطوعون أن باب المدخل قوي وضخم وعريض، راحوا ينزعون مفصلاته ويحاولون نزعه من الجدار، حتى انهار ساقطًا إلى خارج المنزل على أجساد من فككوه

وأزالوه.. توقفا عند أشد تفاصيل الرواية غرابة: بعد أن نجح المتطوعون في إخماد النيران، انهمك الجميع في تجميع الجثث، فوجدوا جثة السيد توم بادن في المطبخ، وجوارها جثة امرأة ناضجة وهي للسيدة بادن الزوجة، وجثتي طفلين بالقرب من سرير السيد بادن الشاسع الذي احترق بكل ما عليه وتحول إلى رماد، وقد بدا أنهما خلدا إلى النوم وقت الظهيرة قبل اندلاع الحريق. وأثناء انشغال أهل المدينة بالاستعداد لإقامة الجنازة، وعمل السيد بوتر الحانوتي على تفصيل التوابيت على أحجام الجثث المحترقة، فوجئ الجميع بعودة السيدة بادن وطفليها من وورشيستر حيث ذهبت بهم لزيارة والدتها. وفشل البحث في الوقوف على هوية أصحاب الجثث المتفحمة التي تم تجميعها من الحريق يوم أن أصيب السيد بادن بالهياج ذات ظهيرة، وقرر أن يُحرق منزله بمن فيه.

زحف **جورج** على أرضية المخزن إلى أن وصل للباب المحترق المستند إلى الجدار المقابل، ووضع يده المصابة أسفل الباب فتخيل النيران التي أحرقته يومًا ما، وشعر بسخونتها رغم برودة الخشب. حاول أن يقبض بيده على إطاره لكن يده افتقرت إلى المرونة بسبب الجرح المؤلم في أصابعه. تمنى أن يختفي أبوه من على وجه الأرض، لا أن يموت فقط أو يؤخذ بعيدًا عنهم؛ بل أن تتحقق معجزة

ويختفي كأنه ما كان. وتمنى أمنية أخرى وهي أن يعود هاورد طفلًا مرة أخرى ثم يعضه أبوه -جد جورج- ليختبر قدر الألم الذي يشعر به الابن حين يعضه أبوه. ظل متأرجحًا بين هاتين الأمنيتين طوال الأسبوع، خاصة أثناء غياب والده عن المنزل، والذي طال بعد حادثة نوبة الصرع التي شهدها الأطفال. فقد تعمد الغياب عن أنظار عائلته قدر الإمكان خلال هذا الأسبوع، وتجنبهم، والانعزال بنفسه أو الاختباء في أي ركن مظلم بالبيت حين يعود.. في أثناء وجوده، لم ينشغل جورج بأمانيه، بل راح يقاوم رغبته في البكاء كلما رآه وتذكر أن له أبًا مجنونًا، وأن مشاعره نحو هذا الأب تتنوع بين الحب والشفقة والكراهية. وضع يده المصابة في جيبه ونام بعمق حتى شكّلتْ أنفاسه الساخنة سحبًا حملها الهواء البارد فوق رأسه.

- جورج هرب

أخبرت كاثلين زوجها

- وكيف عرفتِ؟

- لقد ترك جو في مخزن الأدوات ورحل دون أن يقطع الخشب أو يحضر الماء أو يساعد دارلا في فرض درس الحساب. رحل وأخذ معه الأمير إدوارد والعربة.

- لا أظنه سيذهب بعيدًا. أتمنى أن ينجح في الهروب.

- ماذا تقول بالضبط؟ هل تستطيع الذهاب للعمل اليوم بدون عربتك.

- كاثلين!

- يمكنك اقتراض السيدة جوديفا من إسطبل عائلة ليفانسيلر. فهو لا يبعد عن هنا أكثر من ميلين.

- كاثلين!

لكنها لم تسمعه حين نادى عليها للمرة الثانية، فقد غادرت بسرعة لتعود إلى حوض المغسلة لتكمل تنظيف باقي الملابس بالماء والصابون.

*****

- يبدو أن جورج هرب

- يبدو الأمر كذلك

- نعم بالتأكيد

- حسنًا، أنا لم أفعلها أبدًا

- ولا أنا

نظر الرجلان إلى السماء ثم إلى أرض ساحة البيت المليئة

بالتراب وقد غطاها الجليد المتسخ تنقره الدجاجات وتنبشه بمخالبها. مط جاك ليفانسيلر شفته وزفر زفرة طويلة. نظر **هاورد** في أرجاء حظيرة ليفانسيلر الأشبه بجراج شاسع مجهز ليصبح إسطبلًا مناسبًا يرعى فيه الفرس العجوز الذي اشتراه جاك لابنته إيميلي. كان ذلك لما ألحت في طلبها طوال الوقت، وفي كل مكان، وحتى على مائدة الطعام حينما أمسكت عن أي إجابة أخرى لأي سؤال غير تلك الإجابة على مدى أسبوع كامل:

- هل تريدين بعض البطاطس؟

- لا، أريد حصانًا

عندما ملّ الأب من دراما ابنته ذات الاثنتي عشر عامًا، ذهب إلى مزرعة الخيول في ديكستر واشترى لها أرخص وأضعف حصان مقابل ستة دولارات. حين رأت الحصان بأنفه الراشحة وأذنيه المتدليتين، ولاحظت أن ضلوعه وعظام حوضه تبرز تحت جلده، صرخت:

- ما هذا؟

- هذا هو حصانك ويبدو أنه جائع وبردان أيضًا

- ما قاله كان الحقيقة، فقد ارتعش الحصان من البرد برغم أن درجة الحرارة اقتربت من الثمانين في يونيو عندئذٍ.

ضربه على مؤخرته، فلما أشاح بذيله اكتشف أنها أنثى، وأنها فقدت الكثير من شعر جسدها.

- هذه هي فرسك، واسمها ليدي جوديفا. اذهبي الآن جهزي لها دلو ماء وكومة من التبن، وضعي على ظهرها ذلك الغطاء الصوفي الأزرق، وابدئي رعاية حصانك الجديد.

- لا أريد هذا المخلوق المقرف. أراهن أنه لا يمكن ركوب هذا المخلوق.

صاحت إيميلي باكية، ورفضت تمامًا أي صلة تربطها بالحيوان البائس، فقام أبوها برعاية الفرسة بدلًا منها، وجهز لها مكانًا مناسبًا، ثم راح يشتكي للجميع عن الأموال التي خسرها في إنفاقه عليها منذ اشتراها بستة دولارات، وعن كم الشوفان والوقت الضائعين عليها منذ اشتراها إلى أن ماتت.

- ليدي جوديفا

- أجرتها دولار في اليوم الواحد

- دولار؟

- بالإضافة إلى ثمن الشوفان

- ثمن الشوفان؟

نظر الرجلان إلى أيديهما، ثم إلى الدجاجات

- حسنًا! أظن يجب أن أذهب

- أظن ذلك

- شكرًا لك، جاك

- لا شكر على واجب

سار **هاورد** ومر على منزله في الطريق، لكنه لم يخبر كاثلين أن ليفانسيلر أراد دولارًا في اليوم ثمن إيجار ليدي جوديفا، وأنه حين سمع ذلك قرر التراجع. غالبًا ستدفعه للعودة رغم علمها أن الدولار هو ضِعف ما سيجنيه خلال اليوم؛ خاصة بعد أن يدفع لكولين ثمن الفُرشاة ودبابيس الشعر التي اشتراها لها، بما في ذلك أرباحه التي لا تتعدي بنسين. نظر ناحية المنزل ذي النوافذ الأمامية الطويلة، والواجهات التي لم يتم طلاؤها بعد، ومن حوله أكوام الجليد تظهر من بينها الأعشاب. أضاء كل شيء حوله، لكنه بدا معتمًا من الداخل. حين اقترب نظر من النافذة على بُعد ليرى طاولة الطعام وحولها المقاعد الخاوية. في نفس اللحظة توقفت كاثلين عن غسيل الملابس فجأة، وجففت يديها في المريلة المربوطة على خصرها، ثم دخلت إلى البيت. ارتقت الدرج على رؤوس أصابع قدميها كي تصعد إلى غرفة

نومها، رغم أنها لم تحتج فعليًّا إلى هذا الحرص في الصعود إلى غرفتها. فتحت الدرج السفلي في مكتبها المجاور لباب الغرفة بتروٍّ، وأخرجت المنشور من حيث خبأته. وضعت المنشور مفتوحًا فوق منضدة الزينة في زاوية جعلته مرئيًّا بوضوح، ثم خرجت وعادت لتكمل غسيل الملابس.

وجد **هاورد** ابنه بسهولة بعدما تتبع آثار العربة والبغل على الطريق عبر المدينة. أكمل المسير وهو ينظر للأعشاب الشتوية التي تنمو من تلقاء نفسها وتبرز سيقانها وسط الجليد الذي سقط لتوه. تنوع العشب إلى حد لم يتخيله هاورد، وأزهر العديد منه بألوان مختلفة. تكسرت سيقان بعضها مما سقط عليه الجليد وتراكم، وذبل بعض آخر وتحول من ألوان الخضرة الزاهية إلى درجات البني الداكن. تخيل هاورد أن رجلًا لم يشهد الصيف قط -وليكن اسمه رجل الشتاء- واعتقد أن الطبيعة تقتصر على تلك المظاهر النباتية الشتوية فقط. عندئذ تكون فكرة هذا الرجل عن العالم فقيرة ومحدودة ومغلوطة. وتساءل عما سيعرفه هذا الرجل عن أشكال النبات والحيوان وغيرها من معالم الطبيعة، إذا كان هو نفسه -هاورد- يجهل الكثير من أنواع النباتات حيث لا يستطيع التفريق بين عشبة الرجويد وزهرة الليس المسماة على اسم الملكة «آن».

عندما وصل إلى الملف الذي يؤدي في نهايته إلى مزرعة عزرا موريل، رأى آثار العربة على الجليد المتناثر فوق الطريق تنتهي هناك. شعر بلحظة أسف وأصابته خيبة أمل نتيجة حبه الشد لابنه الذي فكر جديًّا في الهروب دون التفكير في تَبِعات ذلك الفعل، أو آثاره المحزنة على الجميع، والذي سينال من أبيه أكثر من أي أحد آخر. حدّث هاورد نفسه كأنه يحدث جورج: «تمنيت أن تنجح في الهروب من هذا الجزء من العالم حتى لا يصبح لك أثر فيه للأبد. ستختفي كأنك لم تكن ولن يُستَدَل عليك. وحيثما سيجدون رفاتك، ستدفن ويكتب عليها (رفات ذَكَر قاصر)، وستصبح سرًّا لا يمكن لأحد اكتشاف حقيقته». تخيل هاورد أن عالم حفريات سيعثر يومًا ما بعد آلاف السنين على رفات جورج المجهولة، وسيكتشف حين يفحص عظام يده أن أصابعه قُضمت من قِبَل شخص آخر. وسيشرح لزملائه أن الذي عضه هو شخص في سن النضوج، وقد فعل ذلك ضمن طقوس وحشية يمارسها، أو ربما لأن سكان المنطقة التي ينتمي إليها كانوا أقرب إلى الحيوانات الضارية من البشر.

دخل هاورد إلى المعمل، وتبينَ طريقَه عبر الضوء الخافت المتسرب من بين العشب والطين في الخارج والمنعكس في الداخل على البراميل وقصائص الجرائد وصفحات القصص الكوميدية المصورة الخاصة بطبعات الآحاد.

- جورج، أين أنت؟

- أنا هنا يا أبي

- أين؟

- هنا

نهض جورج من حيث تكوّر على نفسه ونام فوق الأرضية خلف الباب القديم. تكيف بصر هاورد مع الضوء المعتم داخل المعمل، فرأى وجه جورج يبرز من خلف الباب الذي ذكّره بالحريق والمرأة والأطفال.

يقول جورج:

حدّث أبي نفسه في تلك اللحظة: «ابني يختفي وراء باب محترق. هذا الباب هو آخر ما تبقّى من لغز قديم لبيت احترق. البيوت كالبشر، حين تفنى تتحول إلى أشباح. لا بد أنه ممسوس وقد تَلَبّسه شبح كما يتلبس الأشخاص، فيُسقط حولهم الأطباق من فوق الأرفف، ويفتح الأبواب المغلقة في الليل، أو يشتت تفكيرهم ويؤثر على عقولهم. لقد دفنا جثثًا محترقة ظننا أننا نعرفها، لامرأة وطفليها. تلك الأرواح المجهولة التي عاشت خلف هذا الباب قبل أن يحترق لم يتبقَّ من أجسادها إلا عظام دفنت بأسماء مجهولة. ربما

تلبست أشباح تلك الأرواح ذلك الباب، ولذلك بقي واقفًا دون انهيار، لم تؤثر فيه النيران ولا ضربات المنقذين. والآن تلبّست تلك الأرواح جسد ابني. تسكن الأشباح في كل شيء، العشب في السهول، جزر المستنقعات في البحيرات، وفي تصدعات القطب الجنوبي، وفي الغابات الحية والأنفاق تحت الأرضية، وفي النجوم والفضاء الأسود. كل شيء مخلوق في هذا الكون له جماله ودهشته، وأكثر ما يدهش في أي مخلوق هو أنه خُلِق بالدرجة الأولى، والمعجزة في خلق شيء من لا شيء. وها هو ابني شاحب الوجه!».

أرعبت تلك الفكرة هاورد لأنه لم يشكّ في حقيقتها، رغم أن جورج أجابه وهو راكع أمامه على ركبتيه، وبدا طبيعيًّا ومطيعًا وعاديًّا. أما مسألة كونه شاحبًا، فقد كان من الواضح أنه لم يلحظ شحوب ابنه إلا حين رآه يخرج من خلف الباب المسكون، وأدرك أن هذا الشحوب هو في الحقيقة بداية المأساة، وليس نهايتها. والآن يركع الولد أمام أبيه في الظلام وراء الباب الذي حُجب عنه الضوء، ويقف الأب أمام ابنه في بقعة مظلمة تخلو من الضوء؛ ليدرك الأخير أن تلك العتمة المنبعثة من الباب، (عتمة الأرواح التي تركت عظامها المجهولة تحت التراب)، سبّبت ذلك الشحوب والذبول الذي أصاب ابنه.

- أمك قلقة يا جورج، يجب أن تعود

- أعلم يا أبي

نهض جورج ووقف على قدميه، ثم سار إلى حيث يقف أبوه. وضع هاورد يده على كتف ابنه للحظة ونظر في عينيه. وقبل أن يفتح فمه ليتحدث إليه، تراجع وابتسم ثم أنزل يده عن كتف الصبي. قفز جورج على ظهر العربة بينما حلَّ هارود وثاق الأمير إدوارد، وبمنتهى السلالة استجاب البغل لتعليمات صاحبه، واتخذ الطريق إلى المنزل حاملًا على عربته الأب وابنه دون أن يدور أي حديث بينهما.

وفي مساء اليوم التالي، سار هاورد إلى جوار المنزل وهو يفكر في النشرة الإعلانية على منضدة زوجته. فقد رأى الورق المصور الذي يروج لمشفى أمراض عقلية في مين الشرقية صباح نفس اليوم، وأدرك أن زوجته تخطط لحبسه في ذلك المكان. تجاوز المنزل وأكمل المسير تجاه الجنوب إلى خارج مركز المدينة، بينما بقي الطعام على الطاولة، ومن حوله جلس الأطفال وزوجته صامتين في انتظار أن يعود، مترقبين وقع حوافر الأمير إدوارد ليصل إلى الساحة الترابية الخارجية حيث يضع له هاورد كالعادة بعض القش ليأكل قبل أن يسير إلى داخل المنزل ليتناول عشاءه بعدما يلقي التحية على الجميع، ويختم صلاته قبل التناول بجملته

المعهودة: «ولنعترف للرب أن أكبر نعمة أنعم بها على الإنسان أن يلقي في قلبه حب ما يعمل. آمين».

لم يحدّث نفسه بأي شيء؛ بل سار بلا وعي ولم يجد منطقًا لما يفعل، رغم أنه قضى النهار كله يفكر فيما يجب أن يفعله. اتخذ قراره دون أن يدري، ونفذه حين مر بجوار نافذة غرفة الطعام، ونظر إلى أسرته كأنه يلتقط لهم صورة أخيرة أحاطها إطار النافذة الواسع. لم يجعله هذا المشهد يرتد عن تنفيذ قراره، بل دفعه بقوة نحو مصير أقره لنفسه دون الاهتمام بتوابعه. تذكر كلما جلس معهم على طاولة العشاء، ومررت زوجته له قطعة دجاج أو طبق خبز، كأنها تقوم بواجبها نحوه بحسب اتفاقية فرضت بنودها عليهما، وتتلخص في أن يؤدي الواحد واجبه نحو الآخر. ولو كان جالسًا في تلك الليلة على الطاولة، كانت ستقدم له الطعام بدافع الشفقة عليه للمصير الذي سيؤول إليه في بيت المجانين. فهم أن هذا الانتظار المستمر له على الطعام والصبر والصمت الذي يلتزم به أفراد عائلته في انتظاره؛ ليس سوى واجبهم في العطف عليه. وأن ما بينه وبين زوجته باختصار يتلخص في شعوره بالامتنان تجاهها، وشعورها بالولاء تجاهه. شعر أن المسافة بينه وبين منزله وهو يمر على الطريق الموازي صارت أطول، وأنها تحولت من مجرد مسافة إلى زمن يفصله عن حياته.

انبعثت رائحة زيت الخشب والكيروسين المخزّنين في العربة لتذكر هاورد بمنزله الذي سيُحرم منه للأبد، وشعر بأن العربة التي طالما حملت بضائعه المتنوعة ما بين أدوات للنظافة والدعك والتلميع والتنظيم وإدارة الحياة المنزلية، لم تكن في حقيقتها سوى بيته. قال لنفسه: «لقد كنت أعتلي منزلي. أيها الرب، نعترف أن أكبر نعمة تمنحنا إياها هي محبة ما نعمل. أيها الرب، أنصت إلى نحيبي لأنني ظننت أن كل شيء على ما يرام، وأنني أحسنت التقدير في الخطط التي وضعتها لعملي، وأحببت أن أعمل بائعًا متجولًا للأغراض المنزلية، أو طمحت لأن أتاجر في العسل وأربي النحل لأوفر للناس ما يسعدهم في بيوتهم. أنصت إليّ أيها الرب وأنا أنتحب لأنني حررت فواتير لبيع الدلاء الصفيحية، ووضعت الخمر في جيوب معطفي لأبيعه، وأخبرت الناس أن لي ابنين شديدي الذكاء، وبنتين جميلتين. واعلم أيها الرب أنني خجلت من نفسي كلما أرهقت البغل ودفعته إلى الانهيار. وأنني رغم صعودي إلى فضاء مليء بالكواكب والأقمار، بدلًا من هذا العالم المليء بالبوم والفئران؛ أشعر بالخزي لأنني لن أعود إلى عائلتي. لن أعود إلى زوجتي وأطفالي. لن أعود لأن صمت زوجتي ليس علامة على تحمل الحياة بلباقة كما يفعل الأشخاص الجادون الذين يخافونك؛ بل هو علامة على كبح الغضب والمرارة. إنه دائمًا الهدوء الذي يسبق العاصفة. اغفر

لي أيها الرب، فأنا راحل!

ذاب الجليد في أوائل يناير حين صار الطقس دافئًا، ونزل المطر طيلة النهار وحتى تغيب الشمس. عندئذٍ لا تمطر إلا قليلًا فوق رؤوس الأشجار الشاهقة، وتتبخر المياه من الجليد المتراكم لتصعد من جديد إلى السماء. يتسرب الظل إلى الأشجار فيغطي جزءًا منها، بينما تنعكس أشعة الغروب على جزء آخر. كأن يصبح نصف الشجرة معتمًا ونصفها الآخر مضيئًا، تمامًا كما هو حال الغروب، نصفه ليل ونصفه نهار. ركب هاورد العربة وقاد الأمير إدوارد إلى وقت متأخر في الليل إلى أن بدأ يفقد السيطرة عليه. ولمرات عديدة، حاول هاورد توجيهه لأن يُسلك ملفًا بعد آخر؛ لكنه رفض تمامًا أن يستدير مع أي ملف، وفي كل مرة وقف ولم يتحرك. استسلم هاورد وقرر أن يتوقف ليقضي ليلته بعيدًا عن منزله السابق -هكذا أصبح- عشرين ميلًا جنوبًا في موقع مناسب في الخلاء. انتقى بقعة مستديرة ومتسعة، خالية من الجليد ومحاطة بالعشب، ليوقف بها العربة. فك لجام البغل وقاده ليرعى في العشب، وجلس يأكل هو الآخر غداءه -شطيرة لحم وبطاطس بارد- الذي أجّله رغم أنه لم يكن قد خطط لرحلته تلك آنذاك. جلس متكئًا على إحدى العجلتين الخلفيتين للعربة، ونظر لشمعة أضاءها إلى جواره، ثم حول نظره إلى السماء، وتمنى لو تحوّل لون ضوء الشمعة

إلى الأزرق السماوي، وكذلك لو أشعت النجوم بلون اللهيب الذهبي. تساءل هل كاثلين لا تزال جالسة أمام أطباق الطعام البارد مع الأطفال حتى الآن. وأرهقه التفكير فيما يمكن أن يقوم به لإرضاء زوجته. هل يحضر لأولاده خيول سيرك صغيرة وفساتين حريرية، وقمصانًا بألوان متنوعة؟ أم يمنحهم عضَّات مختلفة في أياديهم وأقدامهم؟ عرف في قرارة نفسه أن لا شيء يمكن أن يرضي زوجته ويمنح قلبها الراحة. فبالنسبة لها التقوى التي تحرص عليها لا تتحقق إلا بقدر من الصبر والتظاهر بالكبت. وقد يتساوى لديها الغث والسمين، كأن تستمتع بتناول وجبة دجاج رائعة بنفس القدر الذي تستمتع فيه بتناول رقائق البسكوت المحروقة. وأحيانًا تشكو أن أطفالهما ضعاف العقول، تنتابهم حالات هيستيريا، أو يتناوب عليهم المرض، وتعزي ذلك إلى افتقارهم لتناول اللحم الجيد أو لحاجتهم إلى قلنسوات جديدة. ثم تجلس على عرشها كل ليلة عند رأس تلك الطاولة ذات الاثني عشر مقعدًا، وقد حشدت أفراد مملكتها من جميع المخلوقات سواء من يسكنون الأرض أو الفضاء، وترفع طبقها في وجه الجميع من بين أصناف الطعام التي جهزتها، سواء كانت مشوية أو مقددة أو عائمة في حسائها، وتُقسم لهاورد أن نسله المريض هذا يمكن أن يتعافى لو أنه تناول طعامًا مغذيًّا.

سأل نفسه: كيف يكون الشخص حكيمًا عاقلًا لبقًا، ثم يتحوّل في غمضة عين أو بهزة رأس إلى شخص أحمق يسهل خداعه. الضوء يتغير في كل مرة نبصره فيها. تطرف أعيننا فنرى العالم من زوايا تختلف عن بعضها بدرجات ضئيلة، ثم نكتشف أن موقعنا من العالم نفسه قد تغير تمامًا في كل مرة، وإلى الأبد.. أنا نحّاس، أرى الشمس تشع من قشور الأطباق النحاسية الرخيصة، وأنا شاعر، أرى القمر بيضة مضيئة في عش طائر على غصن عارٍ. أنا صريع، أجد في غرفتي نشرة إعلانية عن ملجأ للمجانين. أنا لاجئ، رغم أن منزلي يقع خلفي.

لم تكن حماقته هي السببُ وراءَ هذا اليأس الذي ألمّ به، فقد أقرّ لنفسه بكونه أحمق، وإنما سببها أن زوجته رأته رجلًا أحمق، ونحّاسًا لا فائدة منه، وشاعرًا مقلدًا يسرق الشعر من مجلات دينية رخيصة ويردده، والأسوأ من كل ذلك أنه لم يكن هناك سبيل لتغيير نظرتها له، أو أية وسيلة يمكن بها أن تراه أفضل. نام وسط العشب واستظل بالعربة، فتوالت على رأسه الأحلام وراح يرى غرفًا خالية وطرقات مهجورة. سارت نحوه بعض الثعالب بعدما هبطت من التل، وصنعوا دائرة حول عربته، وتشمموا المكان من حوله ثم غادروا معًا. استيقظ قبيل الفجر مباشرة على ضوء ظن أنه يراه من بين الأشجار. واستسلم للنوم مرة أخرى بعد أن هبت عليه نسائم

هادئة هزت الأغصان بخفة من فوقه. إلى أن استيقظ على صوت الأمير إدوارد يعبث قريبًا من رأسه بالعشب. خطف قبعته قبل أن يمضغها البغل وهي على رأسه كما سبق أن فعل من قبل، ثم أصيب بعدها بألم في الأمعاء والعيون والأنف. غردت العصافير وأطلقت صفير التنبيه والتحذير، فقد كان الوقت مبكرًا جدًّا. رأى العشب أسفل العربة لم يزل محتفظًا بألوانه بعيدًا عن أضواء الفجر، والندى على أوراق الشجر قد تجمد وصار جليدًا من برودة الجو، وأشع لونًا ذهبيًّا حين سقطت عليه أشعة الشمس من بعد ما كان أزرق بلون ضوء الليل، أو فضيًّا بلون ضوء النجوم المنعكس عليه. لاحظ هاورد أن عش الغراب نما أثناء الليل جوار العشب الذي نام فوقه أسفل العربة. تعجب من نمو الفطر إلى تلك الدرجة وبهذه السرعة وفي ذلك الطقس البارد، ليصير نبتًا كبيرًا من لا شيء.

*****

٣

لم يخطر ببال **هاورد** قط أن يحدّث جورج عن جده -والد هاورد- ذات يوم.

«هذا صحيح! لم أحدثه عن والدي الذي كان دائمًا منعزلًا في مكتبه بالطابق العلوي من المنزل حيث يجلس على منضدة الكتابة يدوّن مؤلفاته. وطالما بقي في تلك الغرفة حتى أثناء تناولنا العشاء في الطابق السفلي، وأثناء أدائي فروضي الدراسية. ومن وقت لآخر مزح حول ذلك الموضوع وتساءل ما هو الشيء الغريب في ذلك، وأخبرنا أنه إذا جلس معنا على طاولة الطعام يأكل البازلاء، فإنه سيكون في اللحظة ذاتها جالسًا أيضًا على منضدة الكتابة، يعدل في مؤلفاته. وقد شعرت بالقشعريرة من الفكرة حين تخيلت أنني لو غادرت طاولة الطعام وأبي جالس عليها يتناول طعامه، وسلكت الممر الضيق، ثم صعدت الدرج الضيق إلى الدور العلوي؛ فإنني سأجده جالسًا على منضدة مكتبه يؤلف. وقد تملكت مني تلك الخاطرة لدرجة أنني بقيت أتخيلها دائمًا على العشاء.

يا إلهي! يا له من شيء غريب يحدث لي! كيف أكون هنا على الطاولة أتناول البازلاء، وفي الوقت نفسه جالسًا على مكتبي أواصل عملي؟

ظلت قدرته على التواجد في مكانين في نفس الآن لغزًا بالنسبة لي، حيث إنه يستحيل عليّ التواجد في أكثر من مكان واحد في لحظة واحدة؛ ولذلك كنت أرى أن أبي رجل غريب من الطبقة الراقية.

أتذكر حين تهب الرياح وتهز الأشجار لتتحرك جميعها على وتيرة واحدة تتزامن مع صوت نفخات الهواء، كأنها أنفاس تأخذ شهيقها وزفيرها بانتظام ليصنعوا جميعًا كورالًا موسيقيًّا متوازنًا. ظننتها أنفاس آلاف الأرواح التي زفرت من وراء الجبال حيث تجمعت حول جذوع الأشجار الجوفاء في الأراضي المنخفضة، كما تفعل العواصف الرعدية حين تزحف على ظهورها فلا تسمعها وإنما تشعر بوجودها من حركة الضغط الجوي. هكذا تضغط تلك العواصف حين تدفع كل شيء من حولها، حتى وجه الماء تجعله مسطحًا، فإذا انعكس عليه الضوء غيَّر زواياه. وكذلك العشب تجعله متيبسًا وتُحَول لونه من الأخضر إلى الفضي. ثم تدفع طيور السنونو بعيدًا عن البحيرة إلى أن تخور قوة هبوبها فتتراجع ويعود كل شيء كما كان. وكذلك تفعل بي حين تمر رياحها وتلامس جسدي فينتصب الشعر من رقبتي إلى رأسي كأنني أمر عبر موجة تغمرني وتتلبسني ثم تخرج مني عبر فروة رأسي. عندئذٍ يكون ظهري مواجهًا للأشجار فأشعر بالرياح تسري

في جسدي كما تسري في الشجر والماء والعشب لتدور طيور السنونو وتغرد ضمن الكورال، ونغني نحن أيضًا معها لنعبّر عن الأحزان الدفينة الحبيسة في حلوقنا مع أغاني الذكريات القديمة.

وصف أبي الأغاني القديمة المنسية التي لا نذكر منها سوى أننا عرفناها يومًا بأنها وهم ظننا أننا نعرفه جيدًا، ولا بد أن مثل تلك الأغنيات التي لم نعرفها تكون رائعة. قال لي ذلك وهو جالس على مكتبه، ومن فوقه يظهر قرميد سقف الغرفة، بينما كنت أنا على الجهة الأخرى من البحيرة أتعقب الثعالب أو أصيد بقرب شجرة التنوب المستلقية على الأرض بجوار البحيرة. أسمع صوته جليًّا وأنظر عبر سطح البحيرة إلى واجهة منزلنا البيضاء من خلال الأشجار المصفوفة فأراه بوضوح. أتبين نافذة غرفة مكتبه المفتوحة في الطابق الثاني تتنفس، فتتطاير من أثر شهيقها وزفيرها الستائر البيضاء غير المنقوشة التي أصرت أمي على لونها من منطلق أنها أبسط حقوقها في إدارة ملكية العائلة. يتردد على مسامعي صوتُ همسِه لي كلما قال: أحضر أغطية الزجاجات والزجاج المكسور، وأغلفة الحلوى وقطع النيكل والصخور الناعمة! أحضر الريش المتساقط وبرادة الأظافر، الأغاني القديمة التي هزت بيتنا الصغير إلى أن انهار، والآن نحتاج إلى إعادة بنائه. تغيم الرؤية وتتشوش صورة بيتنا

الأبيض عبر البحيرة إلى أن يختفي من أمامي. هكذا بمنتهى البساطة، يختفي لأنه في الأساس ليس سوى فكرة هشة في مخيلتي. فأجلس على الجانب الآخر من البحيرة وأفكّر في الموقع المناسب لوضع أساسات البيت الجديد بعد قطع الأشجار غير المرغوب فيها.

كيف أنني لم أتخيل قط ذلك الشعور الذي أختبره الآن وأنا أسبح في المياه الفضية في انتظار وصول العاصفة؟ أسبح في الماء المتجمد المتحجر، وأغوص فيه إلى ذقني حتى يصبح العشب القصير على مستوى مرمى بصري. أبقى ساكنًا في الماء الراكد، بينما تتسلل أشعة الشمس من خلفي لتضيء كل ما تظلله الغيوم البيضاء المعتمة من حولي؛ بينما تأتي العاصفة من جهة الشمال. أسمع أبي هامسًا في أذني:

«ابق مكانك كما أنت ساكنًا، ساكنًا، ساكنًا! رغم سكونك تستطيع أن تغير كل شيء. كنت تسير في انتظار العاصفة، ثم أتيت إلى الماء وركعت على ركبتيك فيه؟ ما شعورك؟ ألم تشعر بشيء؟ انتظر إلى أن تغادر المياه بجسد بارد ونفس نادمة، والمسافة بينك وبين منزلك الآن أميال. الآن أنت واثق من ثقل الحمل الراسخ فوق كتفيك وعلى ظهرك. انظر للماء يتعافى بفضل وجودك. الماء لن يداوي جروحك، لكنه سيضحي بنفسه من أجل أن يغسل همومك في حال أردت

أن يطهرك مرة أخرى. لأن كل شيء سيتغير. السماء التي تراها الآن معتمة والأشجار والأحجار المشعين بالضوء لن تبقى على حالها في المرة القادمة؛ بل ستضيء السماء بينما يصبح العالم كئيبًا. وقد يهطل المطر بلا رياح. أو تعصف الرياح والشمس ساطعة. أو تترصع السماء بالنجوم والغيمات التي تشبه وسائد القطن الوثيرة. ليس بإمكانك أن تصبح أفضل مما أنت عليه حتى لو مرر الكونجرس لأجلك ألف قرار».

- سيدي السيناتور! عليك أن تُسقط بنطالك وتحل ربطة عنقك، ثم تخلع نعالك وتغرز بقدميك في القاع الموحل لتصبح جزءًا من هذا العالم حيث يحلق الذباب بأنواعه، وتحدق الضفادع في عينيك بمحاجرها المتسعة. استسلم للعالم الذي منحك الرب إياه ولا تقاوم. توقف عن التذمر والخجل والسير في طرق ملتوية بحجة النزعة إلى الاستقامة. كف عنصريتك ضد المسلمين والسود والهندوس والزولو والمغول. لن تكسب شيئًا من وراء ذلك إطلاقًا. تمهّل وكن عبقريًا! وإلا بددت عالمك كله، وحطمت أصنامك قبل أن تلتقط نفسك. أصنامك المعدنية، وأصنامك الحجرية ستتحول إلى شظايا، ورياتك البراقة المخططة ستتمزق، وسيسقط كل شيء كما تسقط زجاجات البولنج. سأنفخ فيك لتنطفئ كشعلة في شمعة. أووف، حينئذ، ستكون قد

اختفيت!

عليّ الاعتراف بأن الخُطَب الوعظية التي ألّفها أبي وألقاها في أيام الآحاد كانت غامضة وغير مفهومة. والدليل على ذلك أن أعضاء الأبرشية جلسوا مشتتي الذهن في مقاعدهم أثناء حديثه، وكان من المعتاد سماع صوت شخير بعضهم من زاوية أو أكثر من زوايا الغرفة. حلّق صوته حول الحاضرين جهوريًّا وهو يشرح أهمية كل مخلوق يعمل في الحقل، ويمجد في كل شكل من أشكال الحياة على الأرض، سواء يزحف، يسبح، أو يطير، ويؤكد على عظمة مخلوقات الرب جميعها.

- ولا تغفل أهمية الجرذان في حقول الحبوب، والغربان الناعقة، والسناجب التي تجمع الجوز! أليسوا جميعًا مخلوقات الله أيضًا؟ نعم، وكذلك الراكون ناهب المؤن.

لم يكن هناك علاقة بين ذلك الاهتمام والتكريس والشغف، وربما الهوس الذي جعله ينكب على التأليف تحت السقف المنهار، وبين الناتج النهائي لهذا العمل الدؤوب. لكنني اكتشفت علاقة عكسية بين طول الوقت الذي يقضيه في التأليف وجودة محتوى الخطب؛ بمعنى أنه كلما طال وقت الكتابة، قلّت جودة النص. هكذا بدا لي كلما سمعتها ووجدت أنها تفتقر إلى السياق ولا تزيد عن كونها ثرثرة ومعلومات

من هنا وهناك لا رابط بينها، وهكذا سيجدها المستمع إليه؛ هذا إن أنصت من الأساس. سيلتفت المستمع إلى الخطبة فقط لو سمع فجأة استشهادًا باقتباس مقدس، أو إشارة إلى اسم أحد الرسل. لم يطق سكان المدينة تحمّل الاستماع إلى تلك الخطب، ورغم أنهم اعتبروا أنها جزء من مراسم العبادة وإحياء لسنن المسيح؛ فقد أصابهم الملل لدرجة جعلتهم يشكون من اضطرارهم للاستماع إليها. بدأ الأمر برسائل شكاوى مجهولة، ثم ازداد حنقهم فراحوا يوقفون أبي على الطرقات بعد مغادرة الكنيسة ويشكون إليه مباشرة. فاجأهم أبي بردود شديدة الذكاء على كل هذا الانتقاد. وكأن صدمته جعلته يستعين بأقوال خطرت على ذهنه ولم يضمنها في خطبه. حين استوقفته السيدة جرينليف، قال لها وقد بدت عليه الحيرة:

- يا إلهي! أعتذر لك إن لم تعجبك الموعظة. فالمسلك ضيق وأنا على ما يبدو قد ترنحت.

مثل تلك الردود كانت علامة على أن الواعظ قد صار مُغَيبًا عن هذا العالم وانحرف بخياله إلى عالمه الخاص.

في النهاية، تفاقم الوضع ورأى رعايا الكنيسة أنه قد أصبح مُنذرًا بعواقب خطيرة. حدث ذلك يوم أحد حين ذكر أبي أثناء تأدية طقوس الصباح أن الشيطان ليس سيئًا لهذه

الدرجة. حين انتهت الطقوس، طلب أفراد الأبرشية اجتماعًا طارئًا للنقاش في أمر حالة الكاهن الجديد المتدهورة والآيلة للانهيار. في صباح الأربعاء التالي تم استدعاؤه لمقابلة الشمامسة والرعايا. أصرت أمي أن تختار ملابسه بنفسها. بدا شاحبًا وغير حليق وتصرف بطفولية. قالت أمي:

- ماذا تفعل؟ لا بد أن نذهب الآن إلى الكنيسة لتحضر الاجتماع. يا ربي! يا ربي!

أبقت أمي ما يدور في خاطرها سرًّا ولم تُطلع عليه أحد، بينما راقبت أبي وحالته تسوء أكثر. لم تقصر في مهامها المنزلية من طبخ وكيّ وتنظيف. وأقنعت نفسها بأن حالة عدم التوازن التي يمر بها، وأن الأخطاء في مواعظه رغم قضاء وقت أطول في الكتابة، وما إلى ذلك ليس إلا كبوة فرس، ومرحلة تراجع قد يمر بها أي كاهن في مسيرة خدمته. وربما صدقت أمي أنه يمر بأزمة صحية ذات صلة بالمعتقد، وأنه حين يتعافى منها سيسترد إيمانه الذي سيكون عندئذٍ أصلب وأقوى من ذي قبل. وأيًّا كان ما دار في خلدها فهي لم تُسِر به إلى أحد. المهم أنها في ذلك اليوم نجحت في جعل أبي يحلق ويرتدي ملابسه ويتجه إلى الكنيسة، وأمرتني أن أرتب المنزل بعد المدرسة وأبقى في انتظارهما إلى أن يعودا. جلستُ على طاولة المطبخ بعدما

غادرا وأمامي كتاب التاريخ مفتوح على فصل نابليون الذي كنت أذاكره. نظرت في صور نابليون، إحداها تظهره ممتطيًا فرسًا أبيض، وأخرى يطلق فيها الرصاص وقد سحب سيفه من غمده وأشهره في وجه عدو خفي. صعب عليّ التركيز في استذكار الدرس من شدة قلقي على أبي. فقد ظل طوال فترة مرضه -وتلك هي المرة الأولى التي أصف حالته فيها بالمرض، وقد أصابتني بصدمة وأشعرتني بالخوف- يعاملني بلطف ويبقي بيننا مسافة كعادته؛ لكنني لاحظت مؤخرًا أنه ينظر إليّ بندم على أنه ضيعني، وكأنه لا ينظر إلى شخصي فعليًا وإنما إلى صورة لي يستعيد بها ذكرياته.

شعرت أن أبي يذوي، هكذا ببساطة، حتى أصبح من الصعب رؤيته. ذات يوم ظننت أنه جالس على منضدته منهمكًا في الكتاب وراح يشخبط على ورقة أمامه. سألته عن مكان الحقيبة المخصّصة لجمع التفاح بعد قطفه، وقبل أن يجيبني اختفى. لم أفهم هل كان على مكتبه من الأساس أم أنني سألت شبحًا تقمّص شخصيته وجلس مكانه. وعلى تلك الوتيرة بدأ يتسرّب من العالم قطرة بقطرة إلى أن جف ولم يعد له أثر.

في أول الأمر، بدا كل شيء بالنسبة له غامضًا وسطحيًّا، ثم بعد فترة صار ينسى أين يضع ملابسه. ذات يوم، جلست

أفصص لأمي البازلاء وأقشر البطاطس، فأتي من الخارج وسألني عن شيء، ثم أجبته ولم أتلقَّ ردًّا في المقابل. قمت وذهبت إليه لأجده قد اختفى، وقد ترك وراءه قبعته وحزامه وفردة من حذائه معلقين على شماعات باب المنزل، وكأن طفلًا غير مسؤول تكاسل عن وضعها في أماكنها. شارف الأمر على النهاية عندما بدأ يصبح غير مرئي تقريبًا. بالكاد صرنا نراه. فقط شعرنا بوجوده في مناسبات نادرة كلما تحرك حولنا بخفة وصمت كما يتحرك الظل أو الضوء، أو كالهواء المضغوط كما لو كان جسمًا فضائيًّا، أو كأنه ذكرى عطر قديم نستنشقه في مخيلتنا، أو كالبَرَد حين يسقط في نهار أغسطس على معطف صوفي فيمتصه ويختفي.. في المرات الأخيرة القليلة التي صادف أن رأيته خلالها شعرتُ أنه شخص آخر، كما لو كان مجرد ذكرى، أو كأنه قادم من عالم آخر طقسه شتائي لطيف، إلى عالم اشتعل صيفه بقيظ الشمس الحارقة. ومن ثم صار منطقيًّا أن يدخل في طور الانزواء. وقد صعب الأمر مع كثرة انتقاله بين عالمين، فقلت زياراته لعالمنا حتى توقفت تمامًا. لأنه كما يبدو أن ذلك العالم الآخر أفضل بكثير من عالمنا ولو لم يكن واقعيًّا، حيث لا يهجر الحبيب حبيبه، ولا الأب ابنه، ولا يدير الأخ ظهره لأخيه. انفصل عالمنا عن أبي كما فصل نفسه عن عائلته التي لم تعد بالنسبة له سوى حلم.

يومًا ما وجدته في قبو المنزل يحاول أخذ تفاحة من برميل، واستطعت تمييزه بصعوبة في الظلام. كلما مد ذراعه ليلتقط ثمرة، أفلتت من بين أصابعه، أو بالأحرى أفلتها لأن قبضته صارت واهنة ولم يعد قادرًا على التحكم فيها. وقفت إلى جواره وهو يحاول إلى أن يركز للحظة ونجح مرة، واستطاع أن يلتقط واحدة من أعلى الكومة، ثم سقطت لتعود إلى داخل البرميل. قلت لنفسي: «كيف لو تمكنت من الإمساك بالتفاحة بيدي الواهنتين أن أقضمها بأسناني الضعيفة وأهضمها بأمعائي البالية؟»، ثم انتبهت إلى أن ذلك الصوت ليس لي، وأنه سؤال أبي الذي تَخاطر من ذهنه إلى ذهني. تسربت أفكاره من نفسه الذابلة وجسده المتآكل.

وبينما تخلص أبي تدريجيًّا من سماته البشرية، انطلقت أعضاؤه المادية في الفضاء لتتحول إلى كائنات أخرى، كالنجوم أو غبار القمر، وربما حتى إبزيم حزام، أو قضبان قطار. يحتمل أن انزواء أبي وانحلاله يرجع إلى أنه اكتشف ما يلي:

يا إلهي! لقد خلقت من المادة التي خلقت منها الكواكب والخشب والألماس وقشر البرتقال. وهكذا سأكون الآن وفيما بعد، هنا وهناك. الحديد الذي تكون منه دمي هو في الأصل من شفرة فأس روماني. احلق الشعر عن رأسي، وسترى

على جمجمتي نقشًا حفَره بحار قديم دون أن يعلم بأنه ينقش على جمجمة. نعم، دمي هو فأس روماني وعظامي حفر عليها رجال أسماء معناها «مصارع البحار»، أو «راكب البحار». أما الصور التي حفروها فهي لنجوم الشمال بأشكالها المتغيرة عبر المواسم المختلفة. أما عن الرجل الذي يحرث الأرض بدمائي فإن اسمه لوسيان، ويزرع القمح. لذلك لم أتمكن من القبض على تلك التفاحة في البرميل. وهناك خيط يربط كل تلك الحقائق ببعضها، خيط وحيد هو شعوري العميق بالأسف والأسى. لا بد أنه الحب! ولا شك أن هؤلاء يشعرون بالغضب لأنني أعيق عملهم. فبينما هم ينقشون على جمجمتي وهو يحرث الأرض بدمي، أحاول أنا الإمساك بتلك التفاحة.

فزعتُ وركضت إلى سلم القبو دون أن أصدر صوتًا، ثم ارتقيته بسرعة كي لا أحرج أبي -الذي لم يكتمل تحوّل كيانه من الطين إلى الضوء- إذا اكتشف وجودي. تخيلت -أو أن هذا حدث فعلًا- أمي في أحد صباحات أبريل تساعده في ارتداء ملابسه مبكرًا. كان الطقس عاصفًا ولم يزل مظلمًا، وتساقط الجليد الهش كأنها قطع قطنية من الغيم. قبلها، ولأربعة أيام، لم يغادر أينا المنزل بسبب سوء الحالة الجوية، وانهمار الأمطار وهبوب العواصف، وفيضان الأنهار والبحيرات. وقبلها بليلتين شاهدنا السيد ساباتيس العجوز

يجدف في مركبه الذي سبح وسط الغابة وراء المنزل. وقف والدي هذا الصباح الباكر محدودب الظهر، غير قادر على التحكم في ذراعه ليدخله في أكمام جاكيته. ساعدته أمي في إدخالهما، فارتج رأسه واهتز من أثر ضغطها لذراعيه داخل الأكمام، ومالت القبعة على رأسه بزاوية غريبة، فتخيلت أمي وكأنها تضع ملابس على خيال مآتة. قالت له بصوت مختنق من الغيظ والتعب:

- أبانا! تعلم أن القبعة هي آخر شيء ترتديه

لم يجب، وبدا عليه الإرهاق وهو يلوك فمه علامة على جفاف ريقه. تخيلت -أو ربما رأيت- أمي تضع عليه الملابس في بهو المنزل، بدلًا من غرفته. وقد وقع الخوف في قلبي حين رأيت جسد أبي العاري وساقيه النحيلتين الشاحبتين. لم تشعل أمي مصباحًا رغم انحسار الضوء القادم من الخارج إلى الغرفة عبر زجاج نافذتيها المغلقتين. وقد تحسسا مواضع أقدامهما حين دخلا بينما وقفت أشاهدهما في الممر الذي يربط البهو بالمطبخ.

عانى أبي من إهانة شديدة، ولم يكن في مقدرتي شيء أفعله كي أعيد له كرامته. فقد صعبت عليه نفسه كلما جاهد هو وأمي وأرهقهما العمل على إنجاز مهمة ارتدائه ملابسه. كانت مهمة مريعة ومتعبة. فكرت أن أدخل إلى الغرفة أفتح

نافذة ليسقط عليهما مزيد من الضوء لكنني تراجعت عن تلك الفكرة الغبية. كان من الأفضل أن أترك والدي يعاني في الظلام لأنه ربما انهار فجأة وكره عندئذ أن يكشف الضوءُ ضعفه. انتهى يومها من ارتداء ملابسه، وقادته أمي إلى المطبخ. سارا معًا جنبًا إلى جنب وكأنهما في نصف عناق، وأمي تفرك ظهره بإحدى يديها وتمسك بالأخرى إحدى يديه لتساعده على اجتياز الممر، وتهدّئ من روعه وتهمس في أذنه بنعومة بينما تراقب موطأ قدمه كلما خطا كي لا تزل. تراجعت في الممر للوراء ودخلت المطبخ، ولمحتني أمي وهما يعبران الباب.

- ستضطر لإعداد فطورك بنفسك اليوم يا هاورد. فسوف أخرج مع أبينا

نظر إليّ وأومأ برأسه كأنني شخص مجهول عرّفه بي صديق له حين صادفه في الشارع. فتحت أمي باب المطبخ المؤدي إلى ساحة المنزل الخلفية، فتدفق الضوء وانعكس على كل شيء ليمنحه مظهرًا فخمًا. لم أستطع تخيل كيف يمكن لأحد استخدام مقلاة حديدية أو فرادة عجين. رأيت عبر باب المطبخ المؤدي للساحة الخلفية أربعة رجال يقفون على رصيف الطريق الرئيسي في الشارع مرتدين معاطف وقبعات سوداء، في انتظار والديّ.

رجال من أصدقاء أبي من الكنيسة، وقفت في باب المطبخ أراقبهما يسيران إلى حيث وقف الرجال الذين استقبلوهما واصطحبوهما إلى عربة تجرها أربعة أحصنة كانت في انتظارهما. وقفت العربة على مسافة معقولة من البيت، وقادها رجل لم أتعرف عليه، يرتدي معطفًا ويلتحف به، وحول وجهه وشاح ليحميه من الرياح والمطر والجليد المتساقط بعد أن عصف الجو مرة أخرى. ساعد الرجال أبي ليركب السيارة، ومن بعده أمي، وحرك السائق اللجام فانتبهت الأحصنة وعانت في سحب العربة من الوحل إلى أن دارت عجلاتها أخيرًا. سارت العربة براكبيها وقائدها وأحصنتها وابتعدت على الطريق حتى صار الجميع مجرد ظلال سوداء على مرمى البصر إلى أن اختفت في المدى.

في الصباح التالي، استيقظتُ ونزلتُ إلى المطبخ لأجد أمي تعد الفطائر المحلاة. جلست في مقعدي على طاولة الطعام ولاحظت اختفاء مقعد أبي على يميني. على يمينه اعتادت أمي الجلوس، وتناول الطعام من الطرف النائي على الطاولة، باستثناء أنها لم تعتد الجلوس معنا عند الإفطار.

- أين أبي؟

توقفت فجأة عن الطهي، وتجمدت مكانها بينما ظلت ملعقة القلاية في يد ويد القلاية ملتفة بمنشفة في اليد الأخرى.

- هاورد! أبوك رحل!

جميع نوافذ المطبخ تُفتح على الناحية الغربية، ولذا لم يعبر منها الضوء إلى الداخل إلا في الصباح.. عبر هذا الضوء من أشعة الشمس المختزنة بالسحب لتكسر عتمة الظلام على أطراف الغابة، ثم تمر من أغصان الأشجار إلى الساحة الخلفية لمنزلنا. ظننتُ أنني في حلم يوهمني بوفاة أبي، ويجعلني أخوض بروفة تجريبية سابقة لوقوع ذلك. لم أتخيل أن ما أمر به واقع، وصعُب عليّ التمييز بين الوهم والحقيقة. كثيرًا ما راودني حلم متكرر بأن أبي يأتي إلى فراشي ويقبلني ويحكم الغطاء على جسدي، وغالبًا ما استيقظتُ على ارتطامي بالأرض كالمعتاد حيث كنت دائمًا أعاني من اضطرابات النوم. في ذلك الحلم أكون مستلقيًا في فراشي ثم أصحو حين يقترب مني أبي، لأشعر بحب جارف نحوه. تكرّر الحلم بعد حديث أمي، فظننت إلى أن الحلم هو الحقيقة، وأن حديث أمي هو الحلم. شعرت وأنا فيه أنني بعدما اختبرت قسوة رحيل أبي عن حياتي، فإنني الآن سأحاول منع ذلك، وسأرعاه بنفسي. حين اقترب من الفراش كعادته ليغطيني ويقبلني، قلت:

- أبي! ماذا تفعل هنا؟

- أنا لم أرحل بعد

يجيبني بنبرة ساخرة، غير مألوفة منه، فيصيبني الشك أنه مجرد حلم. فهو لم يتحدث في الحقيقة قط بتلك النبرة، وكم تمنيت أن يفعل. أحتضنه وأقول:

- حسنًا يا أبي! الآن سنهتم برعايتك والتأكد من أنك ستظل بخير

قررت البحث عن أبي في الغابة، فارتديت حذاءه ذا الرقبة العالية ومشيت بصعوبة حيث كان الحذاء أكبر من قياس قدمي. جربت ارتداء ثلاثة جوارب فوق بعضهم البعض كي لا تتخبط قدمي داخله. وضعت غدائي في سلة أبي وعلقتها على ظهري، وارتديت قبعته، ثم بدأت المسير إلى الغابة. تخيلت عند عبوري من حقل الذرة الخاص بعائلة جاسبر أنني كسرت عود ذرة، وأزلت قشرته ومن أسفلها شعره الذي لم يكن سوى شعر أبي؛ فوجدت بدلًا من حبات الذرة على العود أسنان أبي، بيضاء ونظيفة ومتكسرة. أكملت المسير في الغابة، وتابعت تخيلاتي، فوجدتني أقشر لحاء شجر البلوط، وكانت الطبقة الخارجية لينة، ثم أغرس نصل سكيني في الجذع إلى أعمق نقطة إلى أن تلتصق بجزء صلب. أُحدِثُ شقًّا في الخشب، وأوسع الشق بعرض بوصة، فتظهر العظمة الصلبة في قلب جذع الشجرة. كذلك تخيلت أنني أجمع الصخور المستوية من مياه الجدول الضحلة، وأتسلق

الأشجار لأتذوق عصارتها بحثًا عن أثر لأبي يدل على مروره من نفس المكان. هكذا تخيلتُ نفسي وأنا أبحث عن مفهوم ما طالما ذكره في مواعظه وأسماه «نعم العميقة والسرية»، عن فكرة لم أعرف إذا كانت من اختراعه أم أنه اقتبسها من كتاب قرأه. ترددتُ على جميع الأماكن التي ارتدناها سويًّا لأجد نفسي بالنهاية عند مصب بحيرة تاج».

سقط المطر الربيعي فملأ الماء الأخاديد العميقة في طرق النقل الثقيل المهجورة وصنعت بحيرات مؤقتة، عمقها على ارتفاع قصبة الساق، وتكوّنت على سطحها طبقة لبنية مختلطة بطبقة معدنية. اضطر هاورد للخوض بقدميه في واحدة من تلك البحيرات أحيانًا بعدما فاضت وأغرقت الطريق الرئيسي وممرات الغابة. التصقت الطبقة اللبنية الصدئة على سطح البحيرة بحذائه من أعلى، وكتل الوحل في قاع البحيرة من أسفل، وانتشرت حوله يرقات الضفادع الخضراء الراقدة في طور النمو بطبقات الطين بعدما أقلقها بسيره في البحيرة. وصل إلى مسامعه صوت دق نقار الخشب بمنقاره في جذوع الشجر، من مكان ما في الغابة على يساره، وأراد أن يخرج عن مسار طريقه ويذهب للبحث عنه لكن سرعان ما تراجع عن الفكرة. انتشر العشب في ممرات الغابة التي لم تغمرها مياه بحيرات الأمطار، وسار هاورد في الطريق الضيق شبه المستقيم الذي قلما يُطرَق من

قبل البشر، وغيّرت ظروف الطبيعة في شكله وأثرت على استقامته، ليصبح السير فيه أشبه بالسير في أنفاق ملتوية. تسلل الضوء عبر أغصان الشجر إلى تلك الطرق، ومالت الأغصان على الجانبين حتى كادت تلامس الأرض وتشابكت على اختلاف أنواعها. ومع حلول الفصول المختلفة تباعًا صارت أكمات الأشجار متشابكة ومتنوعة الأوراق حتى صعب تمييز كل شجرة عن الأخرى. تفحّص هاورد الطريق الذي سار فيه وعبر من ممرين سقط عليهما الضوء بقوة وأغرقهما ليرى في طريقه جذع شجرة ضخمه قسمها البرق إلى نصفين حين ضرب الأرض ذات مرة في تلك البقعة.

رأى على المدى ما بدا له كأنه نهاية الطريق، لكنه اكتشف حين بلغه أنه مجرد اعوجاج. حدث ذلك في كل مرة ظن فيها أن الطريق ينتهي، ليجد انحرافًا إلى اليمين أو اليسار أو انبعاجًا لأعلى. عصفت الرياح في طرق الغابة الضيقة فتطايرت أوراق الأشجار، ودارت فوق العشب في حلقات. كل تلك الظروف التي سار فيها هاورد وسط الغابة أشعرته بالسير عبر منظار كاليدوسكوب للنماذج المتغايرة، وكأن السماء احتضنت الأرض وبدآ معًا رقصة ثنائية دارا فيها دورات لولبية جعلت الأرض في السماء والسماء في الأرض. رأى كل الأشياء على الأرض تتساقط في حِجر السماء كلما حلت محلها أوراق الشجر والعشب والزهور البرية والأغصان.

وفي المقابل أيضًا رأى كل الأشياء في السماء وقد هبطت لأسفل كلما حلت محل الأرض السحب والضوء والرياح والشمس. وبين الوضعين شاهد هاورد الحيوانات تسبح في الفراغ بين السماء والأرض، والطيور تقفز على تيجان الزهور ثم تنجذب فجأة لأعلى مرة أخرى، والثعالب تستلقي على أوسدة الغيم الوثيرة وتتأرجح بين السماء والأرض. حتى يرقات الضفادع تطايرت ودارت مع المياه، والضوء تكسر كطبق فخاري ضخم كلما نزل على الأرض مع السماء، والتأم من جديد؛ عاد للصعود معها. راقب هاورد كل شيء حوله ينقلب رأسًا على عقب ثم يعود لنصابه ويعيد الكرّة من جديد إلى أن اختفي كل شيء ولم يترك وراءه أثرًا سوى أشعة من الضوء الملون.

بنهاية الطريق الفعلية، وجد هاورد نفسه عند مصب بحيرة تاج، وكان الطقس دافئًا بشكل غير معتاد في ذلك الوقت من العام. انحنى لينظر في تيار الماء الذي يصب في الطرف النهائي للنهر حيث يتجمع الطمي حول الصخور في برك صغيرة. اختلط الماء بالطمي ليشكل عنصرًا جديدًا من عناصر الطبيعة، نصفه ترابي والآخر مائي، ويوصف بأنه مادة طينية ممزوجة بمياه ضحلة. خلع هاورد حذاء أبيه ومن ثم الجوارب التي ارتداها أسفله، وشمّر عن ساقيه ثم نزل في الماء، وحين غرز في الوحل راح يقلبه بأصابع قدميه. فجأة

لاحظ غصنين من شجرة أرز مغلفين بالصمغ طافيين على سطح الماء يجذبان الحشرات لتلتصق بهما، فبقي ساكنًا يراقبهما. بعدها لاحظ أيضًا بعض الأغصان المتشابكة من شجرة عرعر استندت على وسادة من العشب فوق الماء. صعدت موجات الطمي التي قلبها في القاع بأصابع قدميه إلى السطح، ثم اختفت مع حركة التيار. عاد الماء رائقًا حيث وقف من جديد، وبدا كأنه يطفو على سطح الماء، وأن ساقيه تنتهي عند ركبتيه حيث دُفِنت قصبتا ساقيه إلى قدميه واختفتا في الماء الموحل أسفل الأغصان والصخور الطافية على السطح. شعر أن أطرافه السفلية تحولت إلى هيكل عظمي نحيف غير مرئي.

مر بعض الوقت على وقوفه في الماء قريبًا من الضفة وجوار سيقان العشب النامية. ثم رأى جماعة صغيرة من سمك السلمون المرقط تسبح عائدة إلى حيث يقف، وحولها بعض من عناقيد بيض الضفادع التي اقتربت منه لدرجة أنه رأى الأجنة في البويضات الشفافة.

سار هاورد خلف الأشياء الطافية على سطح الماء بقدميه العاريتين حتى مر بصخرة مرتفعة مستوية بدت مناسبة للجلوس عليها، وأخرى متوسطة الحجم فرفعها ووضعها في حِجره كي لا يجرفه التيار ويدفعه بعيدًا أثناء جلوسه.

حين وضع ثقل الصخرة على فخذيه، نزل جسده إلى كتفيه في الماء وغمره الوحل حتى لم يظهر على سطح الماء سوى رأسه، ونظر لجسده فلم يرَ غير رقبته لم يطلها ارتفاع الوحل. حين جلس على الصخرة كان النهار قد بلغ منتصفه، فقرر البقاء في مكانه حتى هبوط الليل، ثم طيلة الليل، وحتى بزوغ النهار في اليوم التالي، سقطت ظلال المساء على الماء الذي صار رائقًا من حوله فراقب الحركة فيه ظنًّا منه أنه سيرى الكائنات المائية عندما تبدأ في التحرك بحرية تحت غطاء الليل، تمامًا كما لو لم يكن موجودًا. وبالتالي قد تنبئه حركتها شيئًا عن أبيه يساعده في العثور عليه. قال لنفسه: «لا بد أن أبقى ساكنًا حيث أنا الآن مثل ناسك من طائفة الجورو، أتجاهل تقلصات العضلات والشعور بالبرد. لا بد أن أتنفس ببطء وبهدوء شديد حتى لا يحرك زفيري سطح الماء الملامس لذقني. أتجاهل الزواحف التي تتلوى في الوحل قريبًا مني. لا يجوز أن أستسلم للنوم. لا بد أن أتحامل على نفسي لأرى كل الأشياء الفزعة. ماذا لو رأيتُ الضوء في السماء؟ ماذا لو رأيتُ الأشباح تقفز على قمم الأشجار؟ ماذا سيحدث لو رأيتُ الثعالب بقوائم بشرية تسير على ساقين وتربض عند حافة النهر لتشرب؟ ماذا لو هبت عاصفة؟ ماذا لو بقيت السماء صافية ولمعت بالنجوم البراقة لتسقط أشعتها على الأرض وينعكس ضياؤها على ضفة

النهر كزهور بيضاء وضاءة نمت على أطرافه، بينما تمر الليلة في هدوء أثناء دوران الكرة الأرضية حول نفسها وينحسر الظلام وتسطع الشمس من جديد. ماذا لو رأيت أبي يسكن جذع شجرة ما، ويدندن لحنًا ناعمًا، ويعيش سعيدًا ومرتاحًا، ثم يراني جالسًا في الوحل؟

بعد منتصف الليل، وقبل أن يتحول اتجاه تيار الجدول إلى الشرق، بدأت أرى أحيانًا رأسًا آخر يطفو على سطح الماء، ولكن ظلال الأعشاب النامية على الضفة لأميال عديدة بطول النهر منعتني من تَبيّن ملامحه. أشع ضوء القمر وسقط على الرأس الذي تموضع في الماء تجاهي. حاولت التدقيق في عينيه لأنني عرفت أنهما مفتوحتان وتحدقان بي دون أن تطرفا؛ لكن بصري غشي كلما نظرت إليه مباشرة، فلا تصبح الرؤية صافية إلا إذا حوّلت رأسي جهة اليمين أو اليسار. عرفت أنه أحد الهنود، ولم يكن حاضرًا لحظة نزولي للمياه، كما لم ألحظ قدومه رغم أنني أبصر الطريق أمامي من حيث جاء. أدركت أنني غير قادر على الحركة لأنني شعرت بشكل ما أنني لو فعلت ذلك فإن شيئًا مريعًا سيحدث إذا تحركت. ندمت على قدومي إلى ذلك المكان بحثًا عن أثر لأبي، وسخرت من حمق الفعل ذاته. قارنت بين أبي وبيني. فهو الرجل الحكيم العاقل ذو الإيمان الراسخ وأنا الابن الغبي الوحيد التعس. مرت الليلة بينما لم يتحرك الهندي إلا لمرة

واحدة، وذلك حين قفزت سمكة سلمون إلى خارج الماء وقفزت في فمه. ظننت أن الهندي هو يايباتيس العجوز نفسه. ذلك الرجل الذي عاش وكبر على جزيرة في البحيرة، ثم انتقل ليعيش مع ريد في كوخه. عمل مرشدًا لصائدي السمك والحيوانات، وغالبًا ما ارتدى فانلة قطنية وبنطالًا مشدودًا بحمّالات بيضاء إلى الكتف، وقبعة صيد عريضة ومطوية الحافة. حذاؤه المصنوع من جلد الحيوانات اللين كان الشيء الوحيد الذي يُعتبر مظهرًا من مظاهر اللباس التقليدي لعِرقه، وقد صنعه بنفسه. بعض الصيادين شعروا بالإحباط والغرابة عندما رأوه لأول وهلة لأنهم لم يتوقعوا أن يرشدهم عبر الغابة أحد الهنود الحمر. اعتاد ساباتيس ارتداء عصابة رأس وجوارب طويلة من جلد الغزلان تغطي ساقيه، وجاكيت صيد بلا أكمام حصل عليه حين لعب دور الشرطي الهندي في أحد عروض مسرح ساندرز، وهو عرض (الرياضيون من بوسطن)، وقد اشتراه له ثم أعطاه إياه جيه تي ساندرز. والحقيقة أننا ظننا عندما شاهدناه أنه أجاد لعب دور الهندي الأحمر بإتقان لدرجة أنه بدا طبيعيًّا.

لم أجد شبهًا يُذكر بين رأس ساباتيس وذلك الرأس الذي يواجهني في الماء. هذا السكون الطويل من سمات ساباتيس، فقد سمعت كثيرًا من القصص عن الصيادين الذين اعتادوا أن يتركوه في معسكر التخييم حين يطلع النهار

بعدما ينتهون من الإفطار الذي أعده لهم. ذكروا أنهم قد يتركونه في مكان ما على وضع ما ومتجهًا إلى زاوية ما، ثم يجدونه على نفس الوتيرة عند عودتهم بعد ساعات عديدة. ينهض من مكانه ويقدم عليهم ليحمل عنهم الفرائس أو السمك الذي استطاعوا صيده بمجرد أن يراهم عائدين، ومن ثم يبدأ في إعداد الغداء منها. غالبًا ما مزح حول أسطورة أن السمك الكبير يختبئ من الرجال البيض.

كان هذا سكونًا مختلفًا عن ذلك المذكور في قصص ساباتيس. هذا السكون كان مفزعًا، وربما لا يصدر عن بشر. فتح الرأس فمه قبل أن تقفز السمكة إلى خارج الماء، وتحول إلى هوة من الظلام انفتحت فجأة في ضوء الليل الخافت. أكاد أجزم أنني سمعت صوت ابتلاعه السمكة بالماء ومرورهما في حلقه برغم بعد المسافة الطويلة بيننا. السمكة لم تكن مرئية وإنما أوحى بوجودها صوت الماء وتناثره، والتفافها في الهواء وسقوطها المباشر في حلق الهندي ثم صوت تجرعه لها. السمكة قفزت إلى حلقه بإرادتها، ولم تحاول الهرب أو الإفلات من بين أسنانه. ربما ظنت أن لسانه ليس سوى سمكة أخرى تتلوى في فراغ فمه. أطبق الفم على السمكة بمجرد انزلاقها إلى معدة الهندي، وانتهى الأمر في لمح البصر دون أي أثر أو دليل على حدوثه في الواقع، بل في مخيلتي فقط. عاد الهندي إلى سكونه وتبيت ملامحه

فوجدتها تحولت فجأة إلى ملامحي. وجدت نفسي أنظر إلى وجهي كأنه انعكاسي في المرآة. نظرت لأعلى ولاحظت بزوغ أول ضوء الفجر من خلف قمم الشجر، وهبت رياح خفيفة أشعرتني بالبرد الشديد، وظننت أنني سأفقد وعيي. فجأة اختفت الرأس دون أن ألحظ أية حركة في الماء رغم أنني لم أحوّل نظري عن الماء لأكثر من ثانية، وهو بالضرورة ليس وقتًا كافيًا لخروجه من الماء واختفائه في الغابة. سكن الماء بلا أي أثر لدخول أحد فيه أو خروج أحد منه.

اختفاء الرأس من الماء كان آخر ما تذكرت حدوثه في هذا المكان حين استعدت وعيي لأجد نفسي راقدًا في خيمة من القماش بعدما التقطني إد تيتكومب ورافي ساندرز وأخرجاني من الغابة بعدما عثروا عليّ فاقدًا الوعي، نصفي في الماء والآخر على شاطئ الضفة، أثناء تجولهما للصيد. انبعثت من قماش الخيمة رائحة أمعاء السمك وطعام عفن ومطر قديم. سمعت رافي يحدّث إد بعدما فتحت عيني:

- ليس ميتًا، على ما أظن

وقف رافي عند رأسي و«إد» عند قدمي. قال «إد» بينما مد «رافي» رأسه للأمام لينظر في وجهي

- يبدو ذلك

اهتزت الأرض والخيمة والأشجار في الخارج على وقع خطوات أقدام إد ورافي وهما يسرعان بجمع أغراضهم استعدادًا للرحيل، وشعرت أنهما أرادا حملي على عمود خشبي بعد ربط أوصالي في طرفيه كما قد يفعلون بدب اصطادوه. دخن رافي سيجارته كالعادة، وعاد ليقول:

- ربما لم يزل حيًّا

نظرت أمامي ورأيت إد من ظهره يرتدي فانلة حمراء وقبعة فوق شعره الطويل المموج. تخيلت إذا أدار وجهه ناحيتي أني سأراه يمضع التبغ.. قبل أن أفقد وعيي مرة أخرى، ظننت أني أرى وجهه من خلف يتدفق منه عصير أو شاي ملون كخرطوم ماء مفتوح حتى بلغ أغصان الأشجار في الممر أمام الخيمة وأغرقها بهذا السائل.

أذكر أن أبي امتلك مركب تجديف حين كنت طفلًا، وأن الهنود هم من صنعوه واشتراه منهم. اعتدنا ظهور أحد الهنود الحمر في كل ربيع بعد ذوبان الجليد، فيخرج من قلب الغابة ذات صباح ويقوم بصيانة المركب ليكون جاهزًا للاستخدام باقي العام. لم أرَ أبي في أي مرة يخرج ويتحدث إلى هذا الهندي، ولم أفهم شروط الشراء التي اتفق بموجبها مع الهنود ودفع لهم ثمن المركب، وبأي عملة. بعد الانتهاء من إصلاح المركب وربط أعواد الخشب المفككة وإضافة رقائق

اللحاء أينما كان ضروريًّا؛ يرحل الهندي ببساطة ويختفي مرة أخرى في الغابة.

في إحدى المرات، اختبأت على مسافة من الهندي الذي كان منهمكًا في عمله، وجلست القرفصاء وسط الأشجار لأراقبه. لم يكن هناك داعٍ لذلك، ولكن شعرت أني مدفوع لذلك. ضاع جهد انتظاري وبقائي ساكنًا مختبئا هباًء ودون أي مقابل. شتت انتباهي عن مراقبة الهندي عصفور الروبن الذي رأيته لأول مرة عائدًا مع تباشير الربيع ليحلق من جديد في الغابة، ولما انتبهت كان الهندي انتهى من مهمته واختفى مثل كل موسم. تبخر كعادته دون أن أسمع له حركة. امتصته الغابة بجذوع وجذور وأوراق أشجارها، وصخرها وضوئها وظلها والربيع والزمن نفسه.

ربما كان ساباتيس العجوز هو الهندي الذي اعتاد إصلاح قارب أبي كل ربيع. بالنسبة لي هذا الرجل ليس سوى ضوء هارب أو دخان واهٍ. يأتيني كخاطرة فجائية كلما غامت السماء بالسحب الرمادية، ومن خلفها احتبست أشعة الشمس في سماء صافية ونقية. حين تشع الزرقة بالألوان الذهبية والحمراء والبنية وتنعكس تلك الألوان على الطرقات، وتحملها الرياح في الجو، أتذكر ظهوره واختفاءه في حركة تشبه حركة الزمن. الحقيقة أنني الوحيد الذي

يرى ساباتيس عجوزًا وقديمًا كالزمن. هكذا رأيت أبي أيضًا، وكلاهما بالنسبة لي رجلان اختفيا من حياتي وأنا صغير، وذكرياتي معهما تشبه حالة الطقس. اعتاد الناس تخويف الأطفال بساباتيس العجوز، أو تفسير تغيرات الجو من خلاله. أحيانًا رآه الناس جالسًا على قمة شجرة، وآخرون رأوه عند البحيرة، يغوص بقدميه في الماء ويطارد السلمون، على عمق أبعد من مواقع مراكبهم السابحة. ريد العجوز تحفّظ في الحديث عنه، وكان كلما سأله أحد الصيادين عن ساباتيس ممن أرشدهم من قبل في الغابة، اكتفى ريد بإجابة مقتضبة «لقد رحل».

بعد اختفاء ساباتيس بين عامي ١٨٩٦ و١٨٩٧، علم الصيادون أن لا أحد غير ريد يصلح أن يحل محله. ومن يومها تجنب الجميع الحديث عنه ليعمقوا فكرة أنه قد صار ذكرى بعيدة، وكأنه وُجد في عصر ما قبل التاريخ حين كان الصيد عملًا خطيرًا ووحشيًّا، ولذلك وجب اللجوء في تلك الرحلات إلى دليل صيد نصفه بشر ونصفه الآخر وحش، لم ينسَ قصص جده عن الغارات القديمة التي لم تكن بهدف صيد الدببة أو الغزلان، وإنما صيد البشر. بدا عجوزًا دائمًا كأجداده وهو يسترجع تلك القصص ويعيد روايتها؛ لدرجة أن الرجال البيض الذين استعانوا به كمرشد في بعثات الاستطلاع اعتادوا تكثيف المراقبة عليه وعزله في مكان

مغلق، ومنعه من تناول أي نوع من الخمر كي لا يفقد اتزانه ويثأر لنفسه وأبناء جلدته بأثر رجعي. وبرغم كل شيء، لم يشكّ الصيادون الذين استعانوا به في مواسم الصيد، وحتى يوم اختفائه، أنه قد يرجع لعادات أجداده الهمج الحكماء يومًا ما، ويذبح مثلًا ثماني أو عشر رجال بيض مسلحين بغرض الانتقام. وأنا صبي صغير سمعت هؤلاء الصيادين -الذين صاروا عجائز- يتحدثون عنه. قالوا إنهم لم يرتابوا فيه قط، ولم يتخيلوا أنه قد يسلخ رؤوسهم أثناء نومهم أو يقتلهم أثناء تجولهم في الغابة للصيد. أما الآخرون الذين لم تقنعهم طبيعة ساباتيس الهادئة المسالمة، فأكدوا أن الذين خاطروا بالتخييم معه لم يعرفوا أنهم يخاطرون بالتخييم مع الشيطان نفسه. وظنوا أن ما أنقذ هؤلاء من الشيطان هو إيمانهم العميق وسماتهم الشخصية البطولية، وانفصالهم عن جميع صراعات العالم القديم وانفتاحهم على العالم الجديد الطامح للإنتاج والمحتفي بالمادة.

ساباتيس، بطبيعة الحال، تصرف مثل غيره من البشر. مثلًا، عرف عنه حبه لمشاهدة الصور الفوتوغرافية من ناحية، ورفضه أن تؤخذ له صورة من ناحية أخرى، إلا إذا كان معه في الصورة طفل. أخذت له العديد من الصور مع أطفال، في أماكن مختلفة، منها وهو واقف أمام متجر تيتكوم العام، أو في شرفة فندق نورث كيري حيث عمل في تقطيع الأشجار

في الصيف لسنوات عديدة. في الصور كان يحمل على ذراعيه طفلًا صغيرًا في كل مرة، وقيل إن أوقات التقاط تلك الصور كانت الأوقات الوحيدة التي شوهد فيها يبتسم. كذلك يقال إنه أحب الحلوى المصنوعة من ملح البحر، وأحب أن يحصل عليها مقابل جزء من أجرته كمرشد صيد للصيادين القادمين من بوسطن، كلما تسنى له ذلك. ورغم أن أسنانه تكسرت وخلا فكه من الضروس تمامًا تقريبًا؛ لكنه استمتع بأن يمضغ الحلوى بلثته ويلوكها بلسانه إلى أن تذوب.

في تلك الأيام، رافقه ريد العجوز الذي عرف عندئذٍ بـ«ريد الصغير»، وقد سكنا معًا في كوخ وراء شارع جودينج بنهاية المدينة، ذلك الشارع الذي شيدت فيه مساكن مدراء مصلحة سك العملة بعد تعيينهم مع زيادة حركة الأعمال في المدينة عقب وصول القطار إليها عبر خط ويست كوف. لم يعرف أحد إذا كان هناك صلة قرابة بين ساباتيس وريد. فقط بعض أمناء المكتبات المخضرمين ممن قرأوا كثيرًا عن تاريخ المدينة رجحوا أنهما كانا أولاد عمومة، حتى أنهم أحيانًا تجادلوا حول الأمر في أمسيات العمل الشتائية. في النهاية ربما فضل الهنديان العيش سويًّا من مبدأ (أن تعيش مع هندي مثلك ولو كان غريبًا عنك، أفضل من أن تعيش مع صديق أبيض). ورغم ذلك لم يشاهَدا معًا في مناسبات كثيرة، حتى أنهما نادرًا ما شوهدا معًا خارج ساحة الكوخ

الذي سكنا فيه، ولم يرهما أحد يتبادلان الحديث قط. بعد وفاة ساباتيس أو اختفائه -أيهما أقرب للحقيقة- بفترة.. لقب ريد بـ«ريد العجوز». وقد بدأ عمله معهم في عام ١٨٩٦ أو ١٨٩٧ حين جاء مجموعة من الصيادين إلى الكوخ للاستفسار عن مرشد الموسم الجديد للصيد، فلم يجدوا ساباتيس، ولم يتلقوا من ريد إجابة عنه سوى أنه رحل. تفهم ريد الإحباط الذي أصابهم حين لم يجدوا سواه ليرشدهم، ذلك أنه بالنسبة لهم بدا أقل توحشًا من سلفه.. وعليه اصطحبوا ريد في رحلاتهم تمامًا كما فعل ساباتيس، مع الفارق أنه لم يخضع لتدريب ولم يمتلك الخبرة. وفي رحلة تحوله من ريد إلى ريد العجوز، اجتهد ليخرج من جلده ويتخلص من شخصيته كي يدخل في جلد شخص آخر اختفى من عالمه وأصبح مع مرور الزمن مخلوقا خالدًا تجاوز حدود الزمان والمكان.

أراد كل من إد ورافي ألا يفوتا على نفسيهما فرصة الصيد في يوم مناسب، لأنه كما يبدو اعتمدت أسرتاهما على ما سيجنياه في رحلتهما. ومن ثم تراجعا عن الرحيل حين أطمأنا إلى أنني حي ولا خطر على حياتي، أنزلوني من فوق النقالة في موقع تمر منه المراكب في الصباح؛ على حد علمهم. أعتقد أنني نهضت ورحت أتجول في الغابة من جديد بعدما تركاني ورحلا، وكان ذلك حين داهمتني أول نوبة صرع في حياتي. عدت لوعيي لأجد نفسي ضائعًا وتائهًا في

الغابة حتى بلغت المنزل بعد الغروب. كنت مبتلًا وجسدي يرتعد من البرد، وخيط دماء نزل من رأسي إلى جانبي فمي وذقني، وإلى أذني، وقد تجلط بعدما توقف الجرح عن النزف. سمعت صوت صدري يعلو ويهبط مع أنفاسي في الظلام، وغطى الصوت على أي شيء ولم أسمع صوت وقع أقدامي ولا الرياح، فظننت أنني فقدت حاسة السمع ولم تعد أذني تستقبل أي صوت من الخارج. ومن قوة العض على لساني، التوى وانحشر في أول حلقي فلم أستطع غلق فمي بأكمله. دخلت المنزل من باب المطبخ بعدما عبرت الممر الموحل إليه، لأجد أمي جالسة على الطاولة تحيك الخروق في جواربي. حدثتني بشيء دون أن تنظر ناحيتي أو ترفع عينيها أو تحرك شفتيها، بنفس أسلوبها المعتاد، حيث لم تجد ضرورة في تحويل انتباهها إليّ. لم تهتم برفع صوتها أو النظر في عيني أو النداء باسمي، ولذا اعتدنا على أن يكون ذلك أسلوب الحديث بيننا. صحت بها:

- وقعت وفقدت وعيي ولم أعد أسمع

تركت الإبرة ونهضت مسرعة إلي. أخذتني من يدي وأجلستني، ثم ذهبت إلى الحوض وبللت منشفة بالماء والصابون. شممت رائحة الصابون في المنشفة، والخشب المشتعل في الفرن، والطعام المطبوخ الذي كان من ضمن

مكوناته الدجاج والزبد، وشممت أيضًا رائحة الخبز، مع أنها لم تطبخ أي عشاء. مسحت الدماء المتجلطة في أذني، ولم أسمع سوى صوت أزيز صاخب يدور في رأسي. قالت لي:

- كنت أقول لك أنه يبدو أنك تمر بحالة غضب شديد

- لقد ذهبت أبحث عن أبي

مسحت الدماء عن وجهي وشعري بعنف، وكادت تقشر جلدي وتنزع شعري من فروته. انتحبتْ دون أن تصدر صوتًا كأنها كتمت صوت حزنها بالمنشفة. صرختُ من الألم فهدأت وأمسكت وجهي براحتيها الخشنتين الباردتين وطلبت مني أن أفتح فمي لتنظر بداخله:

- لا يجب أن تتحدث لأسبوع

اندفعت قائلًا

- لا، لقد ذهبت لأبحث عن سِن أبي في خشب الأشجار، وشعره في ألواح الأغصان، و.....

ضغطت وجهي بقوة بين راحتيها فجأة لتقاطعني

- توقف، لن تتحدث لسبعة أيام وإلا فقدت لسانك إذا استمررت في الكلام.

ربما كان ما قالته عندئذٍ صحيحًا حيث شعرت أن لساني

كأنه شوكه مسننة، ولم أجرؤ على النظر إليه في المرآة. تلك كانت الليلة الأولى التي نقضيها في المطبخ أنا وأمي وحدنا دون أبي. ومنذ ذلك الحين، بقينا في المنزل وحدنا. كل ليلة تنشغل هي بالطهي أمام الفرن أو بحياكة الملابس وهي جالسة على مقعدها بطاولة المطبخ. أما في ليالي الآحاد، فتنشغل بكيّ الملاءات والستائر؛ بينما أجلس أنهي فروضي المدرسية وأذني ممتلئة بصوت الأزيز وأنفي برائحة الطعام. بعد فترة طويلة من شفاء لساني، استطعت الكلام من جديد، وبرغم ذلك لم نعد نتحدث إلى بعضنا.

ليلة أن عدت من الغابة، أعدت حساء وأطعمتني إياه عن طريق ملعقة خشبية طويلة رفيعة دفعتها في حلقي من أحد جانبي فمي من الداخل بحرص شديد لتتجنب الاقتراب من لساني. بدت كعصفور عاد إلى صغاره في العش ليطعمهم بمنقاره في حلوقهم. شعرت بسخونة وملوحة المرق عندما تجرعته فانزلق إلى أمعائي، وبدأت أشعر بالدفء يسري في أوصالي حين امتلأت معدتي بالسائل الساخن. صبرت أمي عليّ قدر الإمكان، واستغرق الأمر منها نحو ساعة. يستحيل أن أنسى شعوري بالحرارة تتخلل جسدي وتنتشر بأطرافي تدريجيًا، رغم تزايد الشعور بالألم والتعب أثناء ذلك. تلك الحرارة التي سرقتها الغابة من جسدي. سرقت مني نصيبي من حرارة الشمس في هذا العالم. نصيبي على ضآلته هو

الذي يمنحني الحياة، وفي غيابه أصبحت على شفا الموت. ليلتها اختفت الحرارة فجأة من جسدي، تمامًا كما اختفى أبي من حياتي ومن المنزل.

*****

٤

شعر **جورج** بجماعة من الناس يدخلون ويخرجون من وإلى الغرفة أثناء النهار محدثين جلبة. أما في الليل، كلما استيقظ لم يجد معه في الغرفة سوى شخص واحد جالس على الأريكة المجاورة لفراشه، مستغرقًا في القراءة على ضوء خافت من مصباح نحاسي فوق الطاولة الجانبية الصغيرة عند طرف الأريكة. دائمًا وجد جورج هذا الشخص مألوفًا، على الرغم من أنه لم يستطع تمييزه بوضوح قط، سواء كان رجلًا أو امرأة، قريبًا أو صديقًا. في كل مرة حاول أن يستجمع حواسه وتركيزه ليتعرف على الشخص من سماته الشخصية، مثل الشعر والعين وتقاسيم الوجه والأنف، ليتمكن من تذكر اسمه. لكنه سرعان ما يفشل ويصبح الجالس أمامه كشبح لا ملامح له. في الليلة الأولى التي رأى فيها مرافقه الغريب المتطوع، سأله:

- من أنت؟

أطبق المرافق الكتاب وانتبه لجورج ثم ابتسم وقال:

- أنت مستيقظ؟

- كم الوقت الآن؟

- متأخر جدًّا

لم يتأكد لجورج ما إذا كان هذا الحوار قد دار بالفعل بينه وبين مرافقه، أم أنها هلاوس الآثار الجانبية للدواء الذي يتعاطاه، أو فقط هو التشوش المعتاد الذي يصيب ذهنه. لم يدرِ هل تحدثا من الأساس أم أنه تَخاطر بدون كلام. وذلك لأن اللحظة التي سأل نفسه فيها هذا السؤال، أحس أنه تلقى إجابة من مرافقه.

- أنت هنا أمامي تتحدث معي، وأسمع صوتك كأنه قرع جرس

حاول جورج تبين ملامح مرافقه عن طريق تحويل نظره فجأة والتدقيق في اللوحة المقابلة له على الجدار، ثم العودة للنظر إليه من جديد في عينيه مباشرة؛ لكنه حين فعل ذلك، لم يرَ في محل مرافقه سوى شبح مشع بالضوء يطفو في الفراغ فوق الأرائك. تحرك الشبح في جميع الاتجاهات الرئيسية، يمينًا وشمالًا، لأعلى ولأسفل، كأن جسده يتحرّك تلقائيًا بلا وعي في محاولة لحماية نفسه من فضول جورج؛ ولذا ظلت هوية مرافقة غامضة كأنها خلفية ضوئية لأثاث الغرفة من ستائر ومصابيح ومكاتب وطاولات. على الأقل عرف جورج أن مرافقه الأول ليس طفلًا ولا مراهقًا، بل رجلًا شابًّا، أصبى بكثير من المريض الذي كسر حاجز الثمانين. رغم ذلك أحس أن مرافقه يبدو كشخص بلغ من العمر مئات

السنين، وكأنه طوى تلك السنوات بسرعة فلم تؤثر في شبابه. قال بنبرة واضحة ولطيفة:

أظن أنني لم أبلغ من العمر سنوات عديدة، بل إن اتساع الزمن الذي عشته يقدّر بمئة عام. أظن أنني طعنت في السن فعلًا ولكنني محاط بهالة ضوئية مشعة من العمر الذي قضيته؛ لذلك لم أزل محتفظًا بشبابي. وأظن أن تلك السنوات المئة كانت هدية منك. أشكرك. والآن دعني أقرأ لك قليلًا لأساعدك على النوم.

المذنب في الشمال: عبرنا الغلاف الجوي عند الغروب، ومن وراءنا ذيل من اللهب. اندفعنا بقوة كالسهم صوب قطعان الغنم التي ترعى في السهل الخصب. السهول البنفسجية: السهوب والمصاطب، الصخور الطينية المتفككة التي خلفتها الأنهار المنقرضة، وألقت بها إلى قاع محيط منقرض. ربما على مسافة بعيدة من هنا حدثت دورة تعاقب حين عصفت الرياح بقلعة مهجورة مشيدة فوق حوض نهر ضبابي معزول في قلب غابة. حين مررنا في السماء الباردة تشع بالضوء في صمت وهدوء، شاهدنا وعلا كثيف الشعر له قرنان أحمران ولم يتوقف عن المضغ بينما دارت عيناه السوداوان الواسعتان في محجريهما المغرغرين ليتتبع حركتنا. وتلك هي ببساطة طبيعة الضوء ووظيفة العيون.

الرياح تكنس السهول دائمًا، فلا نستطيع رؤية الوعل ولا دورة التعاقب. لقد كنا دخانًا محترقًا وبالكاد استطعنا لمس العالم المظلم أسفلنا قبل أن نحترق عن آخرنا وننمحي.

بقيت اثنتان وسبعون ساعة على وفاة جورج حين أتت نيكي بوتشيكي لزيارته في سيارة ألفا روميو حمراء ذات سقف قابل للطي، مرتدية أوشحة فضفاضة. نيكي هي إحدى معارف جورج القدامى من الكنيسة التوحيدية. دخلت إلى الغرفة، وخلعت نظاراتها الشمسية ثم قبلت زوجته على وجنتها، وشاهدته راقدا في الفراش:

- آه يا جورج! أيها الوسيم!

قبلته نيكي على جبينه تاركة أثرًا خفيف لطلاء شفاهها عليه. لم يتعرف عليها حين نظر إليها بانطباع أبله سخيف مثل شخصيات الرسوم المتحركة.

- ومن تلك السيدة الجميلة؟

ألقى عليهم سؤالًا في محله، وكان قصده الحقيقي ليس الاستفسار تحديدًا بل أراد أن يبدو مغازلًا لطيفًا أمامها. وضعت نيكي راحتها على كتفه وتوردت وجنتاها ثم دعته بالرجل الراقي المجامل كعادته. كانت امرأة عجوزًا مظهرها متكلف مثل نجمة سينما معتزلة أجادت دور نجمة

السينما المعتزلة التي تصارع الزمن كي لا تفقد بريقها كآخر الأدوار الدرامية التي أبدعت فيها، لكنها في الحقيقة عملت كممرضة. بدأت تبادل جورج الحديث (والذي لم يتعرف عليها طوال الوقت) وزوجته، في حين دفع وجودها باقي أفراد العائلة للخروج من الغرفة.

- باقٍ على مناوبتي ثلاث ساعات، ولم أجد وسيلة لقضاء ذلك الوقت أسعد بالنسبة لي من البقاء إلى جوار صديقي العزيز لأعتني به. هل لي بشفرة حلاقة ومنشفة وبعض الماء الساخن؟ ألا ترين أن جورج يحتاج إلى حلق شعره؟ لقد حرص دائمًا على الاعتناء بمظهره. لقد بدا دائمًا أنيقًا.

حين عاد أفراد العائلة بعد ساعتين من استراحاتهم التي قضوها في النوم أو التدخين أو الجدال في ساحة البيت بصوت هامس، وجدوا نيكي جالسة بجوار جورج تقرأ له من مجلة ذات غلاف لامع باسم «مجلة العقارات الفاخرة العالمية»، وتمضغ علكة خالية من السكر. استلقى جورج نائمًا وقد غطى جسده بملاءة بيضاء، ولا يظهر من جسده سوى رأسه، ووجهه الحليق النظيف الناعم وشعره المصفف والممشط بعناية. ارتدى نظاراته الطبية وبدا كأنه زبون في صالون حلاقة استسلم للنوم على كرسيه. حين مدحت العائلة نيكي على ما قامت به من عمل رائع، أجابت

- نعم، نعم! تعرفون جيدًا أن كل ما نملكه هو المظهر الذي نبدو عليه

يتكون ميزان الساعة من طوق تم تركيبه على ترس مسنن، ويطلق عليه المنصة النقالة، وعجلة مخرج توضع فوق ماكينة الساعة، ثم يوضع الميزان بطرف مجرى صف الحركة المسؤول عن تتبع حركة الزمن. ولو كانت الساعة مزودة بأجراس، سيكون هناك أيضًا صف الطَرْقَات المسؤول عن الدقات وتنظيم آلية إصدارها بالتوازي مع حركة الزمن. ويتكون صف تروس الطرقات ببساطة من منصة تجميع ومطرقة وقضيب حديد ملفوف تقرعه المطرقة فيصدر دقة واحدة في كل مرة. ويُتحكم في آلية كل من صفي تروس الحركة والطرْقِ زنبركٌ رئيسي عبارة عن خيط من الحديد المطروق المسطح، طويل وحلزوني، ومربوط في طرفه محور العجلة. يلف المحور بمساعدة مفتاح ربط ويجعل الزنبرك يدور بالتزامن معها. ويتم تثبيت الزنبرك في محله كي لا يفلت عن طريق عجلة نقر وسن توقيف الترس.. في الساعات الحديثة، يوضع الزنبرك في صاج نحاسي يسمى الأسطوانة المجوّفة؛ وبالتالي يدور الزنبرك الرئيسي عكس اتجاه الربط فينفك، وعندئذٍ تنتقل الطاقة الحركية إلى منظومة من العجل وتروس السرعة، والتي بدورها تدفع عقارب الدقائق والساعات لتتحرك حول محورها على واجهة

الساعة. وبنهاية هذا الصف -صف الحركة- يوجد ميزان الساعة حيث يتم إنتاج الطاقة الحركية عن طريق زنبرك رئيسي عند مخرج ماكينة الساعة. وبواسطة الميزان أيضًا يتم تنظيم إيقاع ضربات دقات الساعة، وهذا ما يحيلنا مرة أخرى إلى المنصة النقالة وعجلة المخرج.

تسري الطاقة الحركية عبر عجلة المخرج عند الطرف النهائي لصف تروس الحركة، ومن ثم تصبح تلك العجلة بالأخص أهم عجلات ماكينة الساعة حيث تتسم بكونها العجلة الأكثر تعقيدًا وتميزًا وحساسية في حركتها. وهي تعطي الأمر للطاقة التي أبطأتها تروس السرعة، بتوجيهها نحو تنفيذ مهمة دقيقة في جزء يصعب السيطرة عليه. هذا الجزء هو المنصة النقالة التي تقوم بحساب الثواني في زمن اليوم الأرضي الواحد. تلك العجلة تُعاون المنصة كي تحسب عدد ٦٨,٤٠٠ ثانية على مدى الأربع وعشرين ساعة، ولمدة ثمانية أيام متتالية، مما يجعل مجموع الثواني ٦٩١,٢٠٠ ثانية على مدى مئة واثنين وتسعين ساعة. هذا التعاون بين عجلة المخرج والمنصة هو الذي يصدر عنه دقات الثواني التي نسمعها في الليالي الشتوية الطويلة من ساعة الحائط المعلقة على الجدار فوق المدفأة المتقدة أثناء جلوسنا حولها، حيث تمر أوقات فراغنا بينما ننصت في استرخاء إلى ذلك الصوت الذي يبعث فينا الراحة والاطمئنان.

وإذا رجعنا إلى التاريخ سنجد صفًا شرفيًا طويلًا متنوعًا يقف فيه من اجتهدوا لجعل هذه الآلية ممكنة، ويبدأ من هوجينز، جراهام، هاريسون، تومبيون، ديبوفريه، مادج، لوروي، كيندال، ومؤخرًا السيد أرنولد. هؤلاء الذين كرسوا وقتهم وتحلوا بالصبر والحكمة والإصرار، وانكب كل واحد منهم على منضدة عمله منهمكًا في برد النحاس وضبط السرعات وتخطيط الرسومات التي تفسر أفكارهم بعدما كانت مجرد رصاص على ورق وتحولها إلى ما عرف بآلية تحويل ونقل الطاقة الكونية عن طريق ضبط إيقاع دقات الساعة في عجلة المخرج.

أيها الساعاتي، أنصت إلى أسماء الآلات التي افتخروا بصناعتها: ديدبيت، تيكتاك، جريديرون، جراسهوبر، راكليفير، جرافيتي، ديتيني، وبينوييل. عاش هؤلاء مثلما عاش شعراؤنا العظماء، وهاموا على وجوههم في الغابات بأرواح شفافة جريئة بين التلال، وتأملوا الأغنام التي ترعي في الأطلال الأثرية، حيث عثروا على موسيقى الشعر وأوزان ألحانه. على نهج الشعراء العظماء، بحث علماء الساعات عن أبيات الشعر التي تصف تجربة الإنسان في محاكاة موسيقى الطبيعة وتحويلها إلى اختراع بشري حضاري. فأهلًا بك يا رفيق بين أندادك! أهلًا بك!

(من كتاب الساعاتي الحكيم / ريف كينر ديفنبورت، ١٧٨٣)

لم يعتد الزائرون من العائلة أو الأصدقاء الطرق على باب منزل جورج قبل دخوله؛ وإنما كانوا يدخلون مباشرة عند وصولهم من الباب الخلفي إلى الشرفة ذات الأعمدة الثلاثة ومنها إلى المطبخ. ينشغل جورج في العادة بالعمل على الساعات في قبو المنزل، أو يحصل على بعض الراحة حيث يداهمه النوم على أريكة غرفة المعيشة، واضعًا ساعده على رأسه، ونظاراته على الطاولة الجانبية. أما لو صادفت الزيارة وقت الغداء؛ فسيكون جورج جالسًا على طاولة المطبخ، يتطلع في صحيفة وول ستريت جورنال، ويشكو لزوجته من تأخر إعداد الطعام.

- بربك، فلتصمت وإلا انهض وأعده بنفسك إذا كنت تريده أسرع من ذلك.

تناطحا كثيرًا من وقت لآخر على نفس الشاكلة، حين ينتقد طعامها (برغم أنه رائع)، أو غسيلها (التي حرصت على نظافته وكيه كاملًا حتى الملابس الداخلية)، وسرعان ما تُفْحِمه بردها وتطلب منه الذهاب إلى الجحيم إن لم يعجبه ما تفعل، ثم تتجاهله وتخبره أنها ستخرج للتسوق من أجل شراء حذاء جديد، فيضحكان، وتنتهي المناطحة. تفوح من

المنزل رائحة مساحيق الغسيل، النشويات، والدجاج المحمر، وزيت الكتان، والنحاس.

يعرف الزائرون طريقهم إلى غرفة المعيشة حيث يظهرون فجأة، ويوقظونه من نومه الخفيف، فلا يندهش من وجودهم. وقد يصحو من أقل كلمة تقال إلى جواره ولو كان غارقًا في جوف الليل في النوم ويعلو شخيره في أرجاء المكان، فينهض ويسترد كامل وعيه. وبالنسبة للزبائن الذين يأتون بساعاتهم لإصلاحها أو ليستلموا ساعاتهم بعد إصلاحها، فهؤلاء يجيئون إلى واجهة المنزل حيث الباب الرئيسي. ومن ذلك الباب يدلفون إلى الممر الصغير المؤدي لغرفة المعيشة.

في الفترة الأخيرة حين ظهر عليه المرض بعدما بدأ يهاجمه بقوة، انزعجت زوجته من زبائنه، وأرهقها توافد الغرباء على المنزل باستمرار، حاملين ساعات ذات قواعد رخامية سوداء في علب ورق مقوى، أو متأبطين ساعات ذات إطار من خشب الجوز، أو ممسكين بأجزاء ساعات ذات صناديق طويلة مستطيلة تحطمت. وأكثر ما ضايقها أسلوب جورج في التعامل مع زبائنه، وحديثه معهم بمرح وبساطة وتواضع. وقد ضايقتها اللحظة التي يخرج فيها الزبون دفتر شيكاته ويسأل عن مديونيته، ثم تُفاجئه الأسعار بل وتغضبه

غالبًا.

في الأوقات التي يقل فيها توافد الزبائن على المنزل حين تكون الزيارات المُجَدْوَلة أقل من المعتاد أو لا يكون هناك زيارات من الأصل، يخرج جورج بسيارته إلى الشاطئ الشمالي وكيب آن، ويقضي يومه في زيارات البنوك لصرف الشيكات الصادرة عنها، وبعدها يجمع المبالغ ويودعها في حسابه الشخصي نقدًا. وقد حرص على أن يخصص صناديق ودائع نقدية في ستة مصارف مختلفة، احتفظ بها بعملات من فئة المئة دولار. وفي فترة احتضاره، كان يمتلك تلك الصناديق الأربعة المعبأة بالأوراق النقدية من فئات المئة، وصندوقًا آخر مملوءًا بأذونات صرف متعددة، وثلاث حسابات مصرفية جارية وحسابين ادخاريين، وسبع شهادات ودائع؛ جميعها متفرقة على ثمانية بنوك مختلفة. وقد داوم على زيارة البنوك جميعها باستمرار ليطمئن على معدلات الفوائد العادية والمركّبة، وراجع حسابات المبالغ للوقوف على نموها؛ وحتى فتح الصناديق وعدّ المبالغ المودعة بها بنفسه، وربط حزم النقود بالرابطات المطاطية.

حرص جورج على زيارة إدوارد بيلينجز مدير فرع إينون لمصرف سالم فايف كثيرًا. يلقاه جورج حين يصل إلى مكتبه فيبدو كأنه واقف أمام دب من دببة المصارعة الأولمبية،

ضخم وسمين وطويل حيث يزيد طوله بما لا يقل عن قدم ونصف عن طول جورج. يرتدي إدوارد دائمًا بدلة رسمية من ثلاث قطع، وله رقبة ممتدة نسبيًّا تُبرز رأسه الأصلع الذي ينعكس عليه أضواء المصابيح المعلقة في سقف مكتبه بالمصرف فلا يمكن التمييز بين ما إذا كان الرأس الأصلع هو مصدر الضوء أم مصابيح السقف. أما عن رقعة الشعر الشاحبة على قمة الرأس فقد صبغها بعناية شديدة. وفي الأوقات التي لا يشبك فيها أصابع يديه معًا أمام خصره كأنه في وضعية صلاة؛ فإنه يمسّد هذا الشعر ويساوي بينه بطرف إصبعه الوسطى من قمة رأسه إلى قفاه. تُذكرك وقفتهما معًا خلف مكتب إدوارد أحدهما في مواجهة الآخر بفصل في مسرحية هزلية من مسرحيات أيام الثلاثاء الصباحية في يناير. يقفان وراء المكتب الذي يقع في نهاية ممرات المصرف، وينظران معًا إلى الجدار حيث علقت الساعة الضخمة ذات المنظم المصنوع في فيينا. يتأملان البندول الثابت أثناء حديثهما بعدما توقف عن الحركة، وأصلحه جورج لأجل إدوارد على نفقة المصرف:

- يا لهذا الشيء اللعين! لقد توقف يا سيد كروسبي

- تلك الآلات خادعة ولئيمة

رأى جورج بعين الخبير المخضرم أن هناك انزياحًا في

المستوى الذي تم تعليق الساعة عنده على الجدار. وأن سبب ذلك أن إدوارد الضخم يحتك بها دائمًا ويخبطها عند جلوسه على المكتب أو خروجه من ورائه؛ لذلك فقد تضرر البندول إلى أن صار يتوقف كل عشر دقائق، ثم يعود للحركة من حيث توقف. رن هاتف إدوارد فاستأذن من جورج أن يجيب، وأعطى ظهره له ليبدأ المحادثة. قال للسيد وايت على الطرف الآخر من الهاتف:

- نعم، سيحصل على هذه التقارير التلخيصية بنهاية الأسبوع

ضبط جورج الساعة على مستوى أفقي فوق الجدار، ولما لاحظه إدوارد أشار إليه -بينما لم يزل على سماعة الهاتف- بسبابته وأومأ له كي يسمح له باستكمال المكالمة.

- نعم، نعم، هذا صحيح! بموعد أقصاه الجمعة أو صباح السبت، ذلك إذا تأخر فرع لين في تقديم المعلومات من طرفه. أومأ له جورج في المقابل متقبلًا تأخره في إنهاء المكالمة، قائلًا:

- عليّ العودة إلى السيارة

عاد جورج بسلم خشبي وصندوق معدات، ودخل مرة أخرى إلى مكتب إدوارد. وضع السلم أمام الجدار، وفتحه ثم

صعده إلى أن صار أمام الساعة. نظر داخلها ثم هبط وصعد السلم بعد ذلك تباعًا لثلاث مرات كي يبدل بين المعدات التي احتاجها لإصلاح الساعة.. ما شغل باله طوال الوقت أثناء عمله على الساعة هو التفكير في أبنائه وأحفاده: الملابس الشتوية، الأسقف الجديدة، مشكلة نقال السرعات في السيارة، تمويل مشاريع الزواج، مصروفات العام الخامس في الكليات الخاصة.

مرت نصف ساعة منذ بدأ العمل

- أخيرًا أصلحتك أيها البندول اللئيم ابن الـ.....

هبط عن السلم وجفف جبهته بمنديل قماش، بينما حرر إدوارد نموذج دفع على ورقة صفراء، وسحب من أحد ماكينات الصرف ثلاث ورقات من فئة المئة دولار، ليأخذها جورج ويعطيها في طريقه إلى خارج المصرف لعامل الصراف ليضيفها إلى حسابه النقدي. وجد سيدة في منتصف العمر تعمل على الصراف، اسمها إيدي، وقد تم توظيفها منذ افتتاح المصرف عام ١٩٦١.

- عزيزتي! فقط ضعي هذا المبلغ في صندوق الوديعة الرمادي الصغير الخاص بي الذي أخرجته لتوي، وأعيديه إلى مكانه مع الصناديق الأخرى.

- ماذا كنت سأفعل لو لم تخبرني بما أفعله يا سيد كروسبي؟

مازحته وهي تمضغ علكتها وتنفخها لتصنع فقاعة، وأخذت من يده المال ثم بللت طرف إصبعها وعدت مرتين.

- واحد، اثنان، ثلاثة! واحد، اثنان، ثلاثة

سارت إيدي في قبو المصرف متجه إلى حيث يحتفظون بصندوق وديعة جورج، بينما تأمل هو المكان بهدوئه ونظامه وضوئه الذهبي البراق، واستمتع بصوت الموسيقى الهادئة تنبعث من مكبرات السقف بأرجاء المصرف. تذكر قبو منزله، وبالتحديد ورق الحائط في ورشته حيث يعمل. طُبع على الورق أغصان الصنوبر على خلفية لون خشبي. ازدحمت جدران الورشة بعدد من الساعات المتنوعة تنتظر دورها للصيانة أو الترميم، بعضها يدق والآخر لا يصدر عنه صوت. وكذلك بعضها لا يزال في صناديقه، والآخر عبارة عن مجرد ماكينة نحاسية التصقت بها المؤشرات والعقارب.. في أماكن متفرقة، وجدت مُنظِمات من العلامتين التجاريتين كوكوس وفيينا، وساعات حائط ذات قرص دائري، وساعات محطات القطار الأثرية، جميعها معلقة على ارتفاعات مختلفة، بعدد يبلغ حوالي خمس وعشرين إلى ثلاثين ساعة. وبعض تلك الساعات أراد أن يعرضها للبيع. كل تلك الساعات لم تحتوِ

على عقرب ساعات. إلى الناحية اليسرى من منضدة عمله، دولاب عريض مصنوع من ألواح الصنوبر الخشنة يغطي كل المساحة تحت درج القبو المؤدي إلى الدور العلوي. وسط كل هذا الزحام والعديد من الساعات وورق الحائط الداكن لم يكن هناك مصدر تهوية في القبو سوى فتحتين صغيرتين بالقرب من السقف. كان أشبه بتعريشة، أو كوخ ريفي آيل للسقوط. هناك حيث قضى جورج ساعات النهار على طولها منكفئًا على مكتبه مرتديًا نظارته الطبية وفوقها عدسة أو عدستين مكبرتين بقياسات مختلفة مثل عدسات الجواهرجي، مدققًا في كل ذرة من مكونات أحشاء ماكينة الساعة النحاسية التي يعمل عليها؛ بينما يدفع ويسحب محاور وتروس سرعات وسنون توقيف التروس. في أثناء ذلك الوقت، يدندن الساعاتي بألحان من تأليفه تتبخر بمجرد أن تخرج من أحباله الصوتية وتغادر حلقه. وأحيانًا يجبر بعض أحفاده المتعددين الملولين على الجلوس أمامه ثابتين في مقاعد خشبية غير مريحة ليراقبوه أثناء عمله؛ لحاجة في نفس يعقوب، إلى أن يقودهم تقريبًا إلى الجنون.

- هذا هو ما يجب عليك أن تتعلمه، أيها الولد! اعلم أن إتقان ذلك سيؤهلك لجني بعض المال.

في الواقع هم لا يضعون أياديهم في أي شيء، بل يجلسون

أمامه ويحاولون معرفة الأغنية التي يدندن لحنها دون جدوى، ثم يحولون آذانهم من الإنصات لألحانه إلى إيقاع دقات الساعات المتناثرة من حولهم فوق الجدران وعلى المكاتب، والطاولات القابلة للطي، والأسِرَّة القديمة غير المستخدمة، وأرفف مكتبات خشبية مثبتة في الحائط.. لم تدق تلك الساعات جميعها على إيقاع واحد متزامن، إلا في مناسبات نادرة حين يتصادف أن تدق معًا للحظات ثم سرعان ما تتفاوت دقاتها. ينتهي الأمر بنحيب الضحية المحتجزة في القبو من الملل والتعب من الإنصات إلى تلك الضوضاء الصاخبة المستمرة. أما عن إضاءة المكان فتتلخص في مصباح صغير بلمبة أربعين وات مثبت في الجدار، ومصباح جواهرجي فلورسنت آخر لمكتب جورج مركبة في عمود متحرك يمكن تعديل زواياه للتحكم في تركيز الضوء على أي عمق في أجزاء الساعة على سطح المكتب. هذه الإضاءة المسلطة على المكتب لا تساعد الطفل المقيد بمقعده لتنفيذ رغبة جده وتعلم أساليبه البارعة في تصليح الأجزاء الغامضة المعقدة للقطع الأثرية النادرة. وبدلًا من أن يصب الحفيد تركيزه على العمل الجاري أمامه، ينتهي به الأمر متتبعًا ذرات التراب المتصاعدة من القطعة، العالقة في أشعة الضوء، والطافية بين المصباح والمكتب. وبينما تغرق باقي الغرفة في ظلام دامس؛ يجذب هذا المشهد

الغريب نظر الطفل، فيتخيل ذرات التراب مركبات تسبح في الفضاء وتغزو العالم الأثيري. أما الرأس الضخم الذي انحنى من خلف الهالة البراقة، فهو للكائن العملاق المكلف بإصلاح آلة الزمن. وإذا عطس أو شهق، سيتسبب في إعصار يبتلع الفضاء بالمركبات السابحة فيه.

كيف تصنع عش طير؟

خذ رقاقة نحاسية من نحَّاس، واستخدم مقصًّا صلبًا لتقطع الرقاقة إلى مثلثين صغيرين لا يزيد طولهما أو عرضهما عن نصف بوصة، أو أصغر لو أمكن. ثم قم بعمل ثقبين قريبين من زاويتي قاعدة كل مثلث باستخدام شاكوش صغير ومسمار رفيع، أو الأفضل إبرة حياكة سميكة بدلًا عن المسمار لتصنع ثقبًا مثاليًا. ارسم خطًّا وهميًّا في ذهنك يقسم المثلث إلى نصفين أو مثلثين قائمين بالنظر دون القياس، فلن يكون هناك حاجة إلى قياس حسابي دقيق. أدخل خيطًا قصيرًا في ثقب كل مثلث واربط طرفه ثم أرخِ طرفه الآخر، وليكن خيط صنارة أو حياكة أو مما يُستخدم في الطهي. الآن، عليك بالصبر في الخطوة التالية. ثبّت المثلث الأول على طرف الإصبع السبابة - فوق عظم الظفر- بحيث يكون الخط الوهمي الذي يقسم المثلث من الرأس إلى القاعدة في منتصف الإصبع. ثم قم بضغط المثلث لأسفل وثنيه من

ناحية القاعدة، وادفعه لخارج الإصبع بحيث يتلامس مع الإصبع من فوق الظفر فقط. شد الخيط من طرفي قاعدة المثلث واربطه بإحكام على خط العقلة الأولى كي تثبت رقاقة النحاس في إصبعك بإحكام فلا تسقط. افعل نفس الشيء في المثلث الثاني ولكن بتثبيته على الإبهام بعد ثنيه ودفعه للخارج. قرب إصبعيك السبابة والإبهام أحدهما إلى الآخر، وأبعدهما في حركة متتابعة. وبذلك تكون قد صنعت منقارك.. الآن تستطيع أن تلتقط بمنقارك الأعشاب والأغصان الرفيعة والخيط وغيرها من الأشياء التي يمكنك نسجها معًا على الغصن الذي سيحمل العش المناسب لفصيلتك.

بناء عش طير يحتاج قدرًا من الخبرة والاستعداد.. يختلف بناء على نوع العش الذي ترغب في نسجه، ومن المفترض أن يتم دراسة النماذج المصممة من قبل إلى أن تستطيع صنع تصميمك الخاص. سيكون من المفيد أن تخصص وقتًا في بداية فصل الربيع لمراقبة الطيور في فترة الظهيرة أيام عديدة لتتمكن من مشاهدتها وهي تبني أعشاشًا جديدة كي تتعلم نسج الغرزة المثالية. وضع في اعتبارك أن المواد المستخدمة في صنع العش لا يتم اختيارها اعتباطًا، ولكن هناك مواد معينة يمكن نسجها دون غيرها بأسلوب معين وبمنتهى التمهل والحرص. لا تقوم الطيور بجمع الأخشاب التي تحتاجها دفعة واحدة، بل تبحث عن كل قطعة بتأنٍّ

وتتأكد من مواصفتها قبل أن تقرر أنها مناسبة لتجمعها وتخزنها. وربما يبدو سلوك الطير في هذا الشأن عبثيًّا لمن يلحظه لأول مرة، خاصة لو كان ممن يرغبون في تعلم تقنيات بناء عش الطير؛ لكن هذا الشخص سيفهم تدريجيًّا أن المتعة المكتسبة من تنفيذ المشروع في مجمله لا صلة لها بإشباع الحاجة وتحقيق الكفاية. مع الوقت، وحين تصبح صانع أعشاش ماهر، ستكتفي بمنقار واحد في يد واحدة؛ ذلك أنك في البداية ستحتاج لاستخدام منقارين. ومن ثم، ستضع يدك البشرية العادية وراء ظهرك دون أن تشارك في لعب دور الطائر الذي صار محترفًا ولم يعد في حاجة لمساعدة منقار آخر.

الآن، اكتمل بناء العش، فبم ستملؤه؟

بدون سؤال، عليك أن تضع في العش ما يوصيك به قلبك! بيض عيد الفصح بعد نزعه من أقماعه المزينة، صخور صقلتها مياه النهر ونعّمتها، خصلة من شعر حبيبك، أول سن لبني سقط من فكك، أو أي شيء آخر تختاره ويتناسب مع حجم عشك، ويُدخل على قلبك السعادة كلما أردت إلقاء نظرة عليه في العش. وهكذا بمرور الزمن، يمكنك أن تأخذ الريف بأكمله -لو أنك من محبيه واضطررت إلى أن تهجره- في مجموعة أعشاش فيصبح معك أينما كنت. وقس على

ذلك، سيتمكن كل شخص من الاحتفاظ بكنزه الخاص معه طوال الوقت.

(من كتاب الكراس المفقود: هاورد آرون كروسبي)

مرفق به كتيب إرشادي ورسومات توضيحية، ١٩٢٤

يوم السبت وصل **هاورد** إلى فيلاديلفيا الشمالية في السابعة صباحًا، وبحلول التاسعة كان قد باع عربته مع البضائع التي تحملها بمبلغ عشرين دولارًا، ثم وجد وظيفة كعامل تكييس في شركة بقالة تدعى (شركة شاي المحيطين الأطلنطي والهادئ الكبيرين).

«سألني المدير هاري ميلر عن اسمي، فقلت لنفسي: لقد سرقت عربة وكيلي بكل ما فيها وبعتها كأنها ملكية شخصية لي؛ لذا لن يكون من الحصافة أن أخبره باسمي الحقيقي. فربما سأصبح مطلوبًا للعدالة قريبًا؛ لذا أسميت نفسي آرون لايتمان، ثم انقطعت علاقتي تمامًا بـ»كروسبي». قلقت من احتفاظي باسمي الأول (آرون)، ولكن أردت على الأقل الإبقاء على بعض هويتي الحقيقية. لم أرد قطع الخيط الأخير الذي يربطني بنفسي. وها أنا الآن أرقد إلى جوار زوجتي التي لم تحصل بعد زواجنا على لقب كروسبي مثل كاثلين بلاك؛ بل حصلت على لقب لايتمان. زوجتي ميجان فين أصبحت بعد زواجنا السيدة ميجان لايتمان».

وهكذا، بدأ هاورد حياته المهنية الجديدة كعامل تكييس في متجر بقالة، ومهمته هي وضع البقالة للزبائن في الأكياس الورقية البنية بعد دفع ثمنها. وقد أحب عمله، وأحب رائحة الأكياس الورقية التي تفوح بعطر لحاء الشجر. أحب ترتيبها في أكوام، وتنظيفها من لبابة الورق، وفتحها وطيها. أحب حتى رائحتها حين تختلط بروائح الأشياء التي توضع فيها، سواء كانت صناديق تناسب حجمها، أو برطمانات وزجاجات، أو علب صفيح، أو قطع اللحم بعد أن يلفها الجزار في الورق البني، وأيضًا أرغفة الخبز الطازجة المغلفة. وقد افتخر بتميزه في ترتيب الأغراض في الأكياس بحيث يضبط اتزانها وأحمال البضائع بداخلها، فيسهل على النساء المتسوقات حملها دون أن تنقطع. وقد تدرب ذهنه على ترتيب الأشياء في مخيلته بمجرد رؤيتها على طاولة الدفع بعدما تضعها المرأة أمام الكاشير؛ وبالتالي فما إن يدفع عامل التحصيل الأغراض واحدًا تلو الآخر تجاهه، حتى يتلقاها وهو يعلم تمامًا أين سيكون مكانها المناسب في الحقيبة، أيًّا كانت: مقرمشات، محمصات، طحين، تفاح، علب السمن، أو ملح. يرتب الأغراض باحتراف ويُعد الكيس بأناقة ثم يسلمه للزبونة.

بعد شهرين من تعيينه، ترقى إلى رئيس قسم الخضروات

والفاكهة، وجعله أشبه بالجنة. شيّد هاورد في القسم الذي انتقل إليه مدينة أشبه بـ»طيبة» القديمة، وصارت عامرة بأشجار البرتقال والليمون، وصنع بداخله غابات أحراش مليئة بأكوام الخس والبروكلي. روائح الثمار الطازجة أنعشته وألهمته فأبدع في عمله. وما لبث أن حصل على ترقية أخرى كمدير مساعد بعد ستة أشهر من الترقية الأولى. عمل الأسبوع بأكمله دون إجازات، وألّف أغنيات ترويجية لشركته تمجدها وتتفاخر بكونها خارج المنافسة.

«رضيتي اتساخها جعل قلبي يئن، ولن ينظفها سوى صابون ريد لانتيرن».

لا تكف زوجته ميجان فين عن الثرثرة بمجرد أن تفتح عينيها في الصباح، ومن ثم تفتح فمها وتطلق لسانها دون توقف:

- حسنًا، لقد منحني الرب الكريم يومًا جديدًا! هل أطهو على الفطور بيضًا مع لحم الخنزير المقلي، أم فطائر محلاة مع لحم الخنزير المقدد؟ بقي لديّ بعض التوت يمكن أن أحشو به فطيرة عش النمل للتحلية بعد العشاء. فأنا أعلم جيدًا كم تحب هذه الفطيرة، وكم تتلذذ بقرمشة أطرافها الحلوة المحمرة، وكم أنها تهدأ أعصابك فتجعلك تخلد للنوم بسهولة. تنام كطفل شقي تناول كوب حليب دافئ. والحقيقة

لا أعرف كيف للحلوى أن تؤثر فيك بهذه الطريقة، فما أعرفه أن السكر يمنح الجسم طاقة وينبه العقل. لكنني أفضل أن أتجاوز عن هذا، فلا داعي للجدال حول تأثير السكر عليك.

وتستمر في الحديث إلى أن يأتي وقت النوم:

- آه، ها هي ليلة أخرى نلتحف فيها الفراش، وقد أرهقنا عمل اليوم، لكننا مخلصين في العمل ومرتبطين بالحب وسعداء معًا كأننا حبتيْ بازلاء في قرن واحد. حبتيْ بازلاء في قرن واحد! ما هذا الكلام السخيف؟ قرن البازلاء لا يحوي حبتين فقط. لو أن القرن به فقط حبتي بازلاء فهو لا يستحق معاناة تفصيصه. عندئذٍ سيستغرق الأمر وقتًا طويلًا لتجميع ملعقة مملوءة بالبازلاء. ربما تلك الملعقة لن تكفي لتملأ المساحة بين التاسعة والاثنتي عشرة في طبق شخص كفيف. فالمكفوفون يعرفون أن طبقهم مجهّز على شكل ساعة حائط دائرية مقسم محيطها إلى أربعة أرباع الدائرة. هكذا عرفت هيلين كيلر موقع كل نوع طعام في طبقها. مثلًا، البسكوت عند الساعة الرابعة، ولحم الخنزير على وتر الساعة السادسة والنصف (بين ربع الثالثة للسادسة وربع السادسة للتاسعة). البسكوت عند الساعة الرابعة. أراهن أنهم قسموا الطعام بهذا الشكل، ووضعوا البطاطس على وتر الساعة الثانية عشرة ظهرًا. تصبح على خير يا حبي.

عملت ميجان في تصنيف المنتجات بمصنع تعبئة علب صفيحية.

نعم، أقوم بتصنيف مواد التعبئة. افصل الفاصوليا عن البازلاء عن الجزر. حسنًا، هي بالفعل مهمة متعبة ومملة، وتتطلب السرعة في الحركة. حين يصل الهليون أحتاج إلى إعادة ترتيبه بحسب الحجم، اللون، والجودة؛ وبالتالي يتم تعبئته في أنواع متباينة من علب الصفيح. ولا بد أن أكون سريعة، سريعة، سريعة! ولكنه عمل مهم لأن الطعام المعلب أفضل من الطازج.. عذرا لمحبي الخضروات الطازجة. فكثير من الفيتامينات التي تتبخر أثناء الطهي يظل الغذاء محتفظًا بها -مثل البازلاء- حين تُطهى في العلب الصفيح. أعرف تلك المعلومة لأنهم أخبرونا باكتشافهم أن الفيتامينات في البازلاء المعلبة أعلى في نسبتها من الطازجة، كما أثبتت تجاربهم على الفئران البيضاء. فهم يحصلون على مناعة من الإسقربوط إذا داوموا على تناول الطعام المعلب أقل بخمس وجبات من تناول الطعام الطازج.

اعتاد هاورد أن يُحضِر لها الورود كل يوم، مع البرتقال. ففي كل ليلة بنهاية مناوبته، كان يقف أمام أحواض الليمون والبرتقال في المتجر، ويستنشق عطر الحمض القوي النفاذ، فينتعش وتسري الطاقة في جسده، ويتعجل العودة إلى

زوجته التي لا تتواني عن إطلاق لسانها للتعبير عن كل شاردة تخطر على ذهنها، أيًّا كانت. وحين تتوقف قليلًا عن الحديث في لحظات صمت نادرة، يعرف جيدًا أنه ذلك النوع من الصمت الذي يسبق صوت شرخ الجليد تحت قدميك حين تخطو على سطح بحيرة متجمدة هش، فتوقن أنه الصمت الذي سبق مصير هلاكك الحتمي القادم من أسفل ليغرقك.

استيقظ جورج في الليل، شبه فاقد للقدرة على الكلام، بينما جلس إلى جواره على الأريكة أحد أحفاده. نطق اسم زوجته (إيرما) فأجابه الحفيد

- نعم يا جدي

لم يلقَ ردًّا سوى همس واهن. جورج لم يتمكن من تشكيل الهواء الخارج من فمه وإخراجه على هيئة حروف صوتية. لم يقوَ على نطق المقطع الأول من الكلمة الأولى، بينما خرج صوت المقطع الثاني:

- (حححح).... ما

وظن الحفيد أنه سمع كلمة (هيما)،

- ماء؟ هل تريد بعض الماء؟

- (حححح) ما

- إيرما؟ هل تريد جدتي؟ نعم، نعم، فهمت

نهضت زوجته من فراشهما الذي اعتادت منذ مرضه على النوم وحيدة فيه لساعات قليلة، نوم غير عميق، إلى أن توفيت.. جاءته مرتدية رداءًا طويلًا مفتوحًا فوق ملابس النوم، لونه أزرق سماوي، ومزين الأطراف بالدانتيل الأزرق الداكن. سمع وقع نعالها الخفيف على الأرضية الخشبية للصالة، وأوحى صوت طرقه غير المنتظم أثناء سيرها بقدر التعب والإرهاق، وكذلك النعاس الذي تشعر به. توقف صوت طرق النعال حين بدأت السير على السجادة الفارسية على أرضية غرفة المعيشة. وقفت عند رأس جورج، ومالت جهته وداعبت وجهه:

- آه يا جورج، أنت حبة القلب، ألم نَعِش معًا حياة رائعة؟ لقد رأينا العالم كله معًا.

أعطته جرعة ماء في كوب عصير برتقال زجاجي مطبوع عليه أشكال طيور. ساعده الماء على النطق.

- من هذا الذي يقرأ لي؟ من يقرأ؟ ما اسم الكتاب؟

- أي كتاب يا جورج؟

تحدثت إلى الحفيد:

- هل كنت تقرأ لجدك، يا تشارلي؟

- لا يا جدتي

استدارت جهة جورج:

- لا أحد يقرأ لك يا جورج

- الكتاب الكبير

- لا يا حبيبي، ليس هناك أي كتاب. لا أحد يقرأ لك. لا يوجد أحد جالس معك هنا على الإطلاق.

أصيب **هاورد** بنوبات صرع قليلة في فيلادلفيا، وقد تركت عليه نفس الآثار، حيث شعر بعدها بالدوار والسخونة الشديدة وحرقان المعدة، وبتيار كهربي سرى في جسده. لكن دعم ميجان وخدمتها له بعد كل نوبة خفف عنه. فقد كانت تأخذه إلى الفراش، وتدلك له خديه، وتعد له بعض الشاي الأسود، وأحيانًا قرأت له فقرات من رواية تافهة. لم تزعجها تلك النوبات التي تصيب زوجها، فقد قرأت عن ثقافات أخرى تؤمن بأن الصرع لمسة مقدسة تصيب بعض البشر.

- آه يا حبيبي آرون الرقيق! يا له من داء مريع! خشيت أن تحطم كل أواني الفخار الصيني القيمة لدينا حين اهتزت

جميع الأكواب والأطباق في الكبائن. آه يا إلهي! لا بد وأن داخلك شعورًا مريعًا. هيا لأساعدك كي ترتاح في فراشك وتشعر بالدفء. هل تشم شيئًا وتشعر بمذاقه على لسانك؟ أتمنى أن تشم رائحة قطع اللحم الذي جهزته الليلة للعشاء، أو فطيرة التفاح التي قمت بخبزها هذا الصباح. أتمنى ألا يكون هناك كثير من الدماء هذه المرة. لم تعض لسانك إطلاقًا، أليس كذلك؟ عصا المسّاحة قامت بمهمة جيدة. قياس عرضها مناسب تمامًا ولا أظن أن فكيك تلامسا بعدما وضعتها بينهما. إنها الآن تبدو وكأن كلبًا مضغها.

في النهاية أقنعته أن يعرض نفسه على طبيب، فأوصاه بتناول مهدئ البروميد الذي قلل من تكرار النوبات.

يا ربي! لا أعرف أي نوع من السحر يتقنه الأطباء في كندا، ولكن أمريكا لديها أفضل أطباء في العالم. بعدما عرفوا عن مرضك، أظن أنك محظوظ لأنهم لم يطلقوا عليك الرصاص كما يفعلون مع الكلاب المسعورة. أصيب كلبي، السيد جيجز، بداء الكلب وانسعر حين كنت فتاة صغيرة. أرغى من فمه وتلوى على الأرض في حركة دائرية في ساحة المنزل، وعاد أبي حاملًا سلاح تشارلي ويفر قادمًا من عمله إلى المنزل، ثم أطلق الرصاص مباشرة على جيجز، فأرداه قتيلًا في لحظتها. بكيت بعد قتله كل يوم لمدة أسبوع، فقد كان روحًا متحررة

منطلقة. طارد كل الصبيان وقطع بناطيلهم بأسنانه، وخرب جميع أحواض زهور الجيران، وأكل كل يوم قطة على العشاء. مسكين سيد جيجزي!

الحياة العائلية لأهل الشمال: ١. نراقب الغربان في الصباح التالي لليلة عيد الميلاد المجيد أثناء تجميعها لمواد البناء اللازمة لنسج أعشاشها من بقايا شجر الميلاد المتناثرة هنا وهناك بطول الطريق.

٢. نتأمل خيوط الجليد التي تتشكل على أسطح نوافذنا الزجاجية.

٣. نمارس هوايات الصيد وألعاب الأوراق ونبني بيتا ونرعاه كي ينمو.

٤. بعد عشاء ليلة الأحد، نبدل ملابسنا ونرتدي ملابس فضفاضة ثم نقذف أبناء أعمامنا الأصغر منا بثمار تفاح السلطعون.

٥. نلعب لعبة سحب الشفاطات البلاستيكية، وملك أم كتابة، والشطرنج الصيني.

٦. حين ننتقل إلى بيت جديد وقبل أن نتعارك على واحدة من الغرف، نحسم الخلاف بتحدٍّ في مصارعة الذراعين، والفائز يختار غرفة نومه التي تشبه البلاط الملكي حيث

يستمتع بصحبة الملوك والملكات والمهرجين والشُيَّاب أصحاب الابتسامة الخبيثة. كأن البيت لعبة بوكر يحصل فيها الفائز على بطاقات الشخصيات الملكية، بينما يحصل الخاسر على بطاقات الأرقام، لكننا جميعًا في النهاية سنحظى بالباستوني (الجاروف)، والديناري (الماسة البراقة) والكوب (القلب الأحمر النابض) والكلوب (ورقة الشجرة).

استيقظ جورج للمرة الأخيرة قبل وفاته بثمانية وأربعين ساعة بعدما استرد وعيه من غيبوبة امتدت ليومين. عندئذٍ أدرك أنه صار أقرب إلى الموت من الحياة، فبدأ يفكر في القيمة المادية لممتلكاته غير المعروفة. مبلغ ألفين وأربعمئة دولار نقدي مخبأ في درج المكتب بالقبو، وساعة سايمون ويلارد بانجو معلقة على الجدار سعرها يساوي عشرة أضعاف القيمة التي يقول للجميع إنها تساويها، ونسخة أصلية من الطبعة الأولى لرواية «الحرف القرمزي» مُوَقّعة من كاتبها في أحد صناديق الودائع البنكية. وفكر في أنه أحب الجميع. استيقظ عندما توقف آخر عضو عامل من أعضائه الأساسية البيولوجية، رئته. امتلأت رئته بمادة سائلة وشعر كأن الموج يبتلعه وهو يغرق، فحاول أن يتنفس ويتحدث لكن لم يخرج من حنجرته سوى أصوات مزعجة تشبه خشخشة دلو صدئ يتخبط في قاع بئر جافة. نظر فيمن حوله يستجديهم كي يساعدوه، فانزعج جميع أفراد

العائلة خاصة أخته ميرجوري. بكت ونظرت إلى عينيه الواسعتين وقالت جملتين وراحت تكررهما:

- يبدو مفزوعًا مثل أبي. هو أيضًا بدا مفزوعًا. يبدو مفزوعًا مثل أبي. هو أيضًا بدا مفزوعًا.

إلى أن قرر أحد أبناء العم أن يأخذها إلى المطبخ، ثم قال حفيد ما:

- عليك فقط أن تسترخي يا جديّ. الفزع سيجعلك غير قادر على التقاط أنفاسك. أعرف شعورك تمامًا، فقد اختبرته كلما جاءتني نوبة الربو. أشعر بالفزع أيضًا حين أصبح غير قادر على التنفس. لكنني بمجرد أن أتخلى عن الفزع وأرخي أعصابي المشدودة أبدأ بالتنفس تدريجيًّا. الأمر يحدث لي دائمًا.

نظر جورج إلى الشاب الذي تحدث إليه، وعرف أنه شخص يعرفه ويمكنه الوثوق به. وما إن أغلق عينيه، شعر بوزن جسده وأعصابه التي على شفا حفرة من الانهيار، وظل يسمع صوت الغرغرة في حلقه إلى أن ساعده الاسترخاء على استعادة اتزانه. في النهاية شعر بالارتياح كمن استظل أخيرًا بشجرة في الصحراء القائظة. تخيل أنه يطفو على ظهره تحت سطح الماء، وسمع الأصوات من حوله تعلو، وشاهد الأجساد تتحرك وتشير بأصابعها نحوه، وقد بدا له أن

المكان مليء بالغرباء، ثم أصبح الجميع غرباء. سلوكه تجاه من حوله جعل أحدهم يقول:

- مستحيل، مستحيل! أنا مسيطر عليه الآن!

اختر أي ساعة واضبط عليها الوقت في ساعة الحائط. عندئذٍ يمكن افتراض أن إحدى وظائف آلة الساعة أن ترجع بالوقت عن طريق التحكم في عقاربها كي تعيد لحظة زمن من أول ثانية فيها، وترقبها بينما يتحرك العقرب ليمر على علامات الوقت المتتالية من رسومات بارزة وأرقام وخطوط. ولو نظرنا إلى تلك العلامات مستقلة بذاتها وأخذناها على عواهنها، فلن تعني أي شيء. لكن إضافتها على واجهة ساعة يمنحها قيمة التعبير عن حركة الزمن. ويمكن أيضًا افتراض أن المهمة الأكبر لتروس السرعات والزنبركات في ماكينة الساعة، كل منها على اختلاف وظيفته، وباعتبارها أجزاء جوهرية في الآلة ككل، هو تحقيق معجزة العودة بالزمن إلى نقطة محددة والانطلاق منها مرة أخرى. وهكذا تصبح آلة الساعة نموذجًا مصغرًا للكون الذي تدور نجومه في مدارات تسيرها تروس السرعة الفضائية، وتلف فيها الكواكب على تنوع كائناتها حسب نظام شمسي منضبط، وكل شيء يعمل وفق خطة معينة تتحقق مرارًا وتكرارًا.. يعود الإنسان إلى ما قبل اللحظة التي وصفها الإنجيل بلحظة السقوط.

يعود الزمن دائمًا إلى ما قبل السقوط ومن حيث بدأ. هناك مخلوقات أخرى -وهذا أمر مفروغ منه- من جيراننا الذين يسكنون في الكواكب الأخرى تعود بهم دورة الزمن أيضًا إلى ما قبل السقوط. وفي خضم هذا الكون الهائل، يسير الإنسان كدودة غبية تزحف فوق واجهة إحدى الساعات، وبصرها لا يكشف المساحة الشاسعة حولها، ولا ترى تفاصيل علامات الوقت أو العقارب (خاصة العقارب التي تشبه جناح طائر يحلق في الفضاء ويمر بين النجوم التي ترمز إليها علامات التوقيت كأنه يدور حولها ثم لا يلبث أن يعيد الكرة كأنه يراقبها ويحميها)، أو تدري شيئًا عن صف تروس السرعة أو الزنبركات، وغيرها مما تحويه أحشاء ماكينة الساعة من أجزاء شديدة الدقة تعمل بلا توقف أسفل السطح الذي تزحف عليه. هذا الإنسان الجهول -مثل الدودة الغبية- يتلوى وينثني في تراب الأرض، دون أدنى علم بالغاية التي خلق من أجلها هذا العالم، هذا الكون الذي خلقه الرب لغاية لا يعلمها إلا هو. ومن ثم لا يعرف الجهول أن هذا العالم خيِّر وشرير إلى حد مرعب، وعظيم بدرجة تعلو عن الوصف. وألا شيء يحول بينه وبين اليأس والألم والحزن الكامن في هذا العالم سوى الإيمان الراسخ واليقين. الأمر بسيط، عزيزي القارئ. بسيط ومنطقي ومقبول إلى هذا الحد.

(من كتاب الساعاتي الحكيم/ ريف كينر ديفينبورت،

(١٧٨٣

في ليلة من ليالي يناير، عام ١٩٧٢، رقد **هاورد** في فراشه يقرأ كتابًا ثم تشتت انتباهه وواتته أفكار غريبة عن هيئة الإنسان المادية حين تتحول كي يدخل عالم الأحلام، ويبدأ في الرؤية بعيني طائر. تخيل أن الروح -أو تلك الكينونة أيًّا كان اسمها- تسبح متخففة من حمل جسدها المتعب كطائر يسبح في فضاء النوم المظلم، كأن الجسد تبخر منها كبخار الماء الصاعد من ملح البحر. وبينما يرقد الجسد الحقيقي ساكنًا في النوم، تعلو أنفاسه وتهبط، وقد تخدرت أطرافه؛ تعود تلك المسماة بالروح لتقترب مرة أخرى من الجسد بعد انتهاء رحلتها في عالم الظلام، كأنها ظل الجسد الذي لا يفارقه، وتوأمه المتطابق الذي يتمتع بقدرات على التخلص من ثنائية الأبعاد المكبل بها الجسد، والتي يفرضها عليه كل من غموض الضوء ووضوح الظلام. الأرواح لا يقيدها أي بعد، فهي تتمتع باستقلالية وحرية حركة، وتستطيع نزع نفسها والانطلاق خارج حدود الجسد البشري دون إذن.

اعتقد هاورد أن للضوء تأثيرًا على الهيئة المادية، أي ضوء سواء كان من الشمس في النهار أو من القمر أو حتى المصابيح في الليل. ظن أن الضوء يتسرب إلى سطح الجسد ويملأ المساحة بينه وبين الظل فيظهر. وأن هذا الظل الذي

يستطيع رؤيته في النهار أو الليل هو كائن بذاته، يحلم تمامًا كما يحلم هو نفسه. وقد ذهب بخياله بعيدًا فتصور نفسه ظلًّا لشيء ما أو شخص ما، وأن أحلامه هي انعكاس أحلام هذا الشخص، ويقظته هي حياة الشخص حين ينام ويحلم؛ وبالتالي فإن هناك تبادل أدوار مستمر بين الهيئة المادية وظلها، حيث ينام الأول ويحلم كلما يصحو الآخر ويعيش يقظته، وهكذا.

أسند كتاب « أشهر القصائد في العالم» على صدره بينما ظل مستلقيًا في فراشه وقد سرح بخياله إلى أن عاد إلى عالمه، وخطر له أن يشرح لميجان المستلقية إلى جواره في الفراش تلك الأفكار التي استحوذت عليه، وقبل أن تستمع إليه وضعت سبابتها بين صفحتي الكتاب الذي انشغلت بقراءته، «أيتام تينسلي جرانج المساكين» كي لا تفقد الفقرة التي توقفت عندها حين تعود لتواصل القراءة:

إذن لا بد أن تلك الأفكار هي التي تؤرق نومك في بعض الليالي عندما تهاجمك تلك الكوابيس المفزعة حين ترى نفس البيوت الكبيرة المظلمة تعج بأشخاص تعرفهم لكنهم لا يتعرفون عليك. أو حين ترى المرأة التي تقف عند بحيرة متجمدة بينما تشاهد ابنتيها التوأمتين بعدما سقطتا فيها وتجمدتا، حتى طفا شعرهما الطويل على سطح البحيرة

وتجمد مثل جسديهما. يبدو أن ظلك كلما أصابه النعاس وأراد الحصول على قليل من النوم، أيقظك ليغفو. وتخيل ذلك! لو أن ظلك أيقظك، وأنت أيقظتني، عندئذٍ سينام ظلي أنا أيضًا، بكل تأكيد! ربما اشترك ظلانا في مؤامرة ضدنا، يا حبيبي الرقيق، وهما شركاء في نفس الجريمة، مثلنا تمامًا.

- ربما يا حبي! ربما تلك تكون هي الحقيقة

قبّلها على أذنها وأغلق الكتاب ثم استغرق في النوم ولم يستيقظ مرة أخرى.

انسحبت الدماء الداكنة من أطراف جورج شيئًا فشيئًا أثناء موته. في البداية تراجعت من قدميه إلى ساقيه واختفت، ثم تراجعت من يديه. شعر بذلك ولكنه كان على مسافة بعيدة مما يحدث. كأن الدماء تبخرت أو تحولت إلى دخان أو إلى روح نحيلة لم تعد تقوى على حمل ثقلها من المعادن، فترحل مخلفة وراءها رواسب الملح والمعدن تتناثر في الأوردة الجافة. تخشبت ساقاه الخاليتان من الدماء وصار ملمسهما كجذع شجرة، وخلتا من الحياة كعوارض خشبية. تحجرت قدماه حتى صارتا كقالبي رصاص، وبرزت تحت الجلد الأوردة الجافة المملحة المعدنية التي تشعبت من القدمين إلى باقي الجسد. صدره الذي تباطأ في حركته صار مصمتًا وجامدًا، وأصبح من الممكن اقتلاع قلبه بأوردته وشراييينه

من وراء أضلعه دون اكتراث وبسهولة. تلك الماكينة -القلب- التي قامت بتشغيل هذا الجسد، قد أصبحت الآن شاحبة وعاطلة عن العمل بعدما توقفت تروس الحركة عن ضخ الدم في العروق، ولم تعد المنصة المسؤولة عن حساب الدقات قادرة على القيام بوظيفتها، ليصبح النبض هزيلًا غير منضبط لينبئ بصمت قريب. بدت الأوردة كأنها جلبات بالية مهترئة ومرقعة، ولم تعد العضلات المرتخية قادرة على دفع الماكينة لضخ الحياة فيها من جديد.

ابيضّ وجه جورج من الشحوب، وخلا من أي تعبير، إلا أنه أوحى بحالة من السلام، أو بالأحرى السلام الوشيك الذي لا علاقة له بالسلام البشري. خرجت الأنفاس بالتناوب بين زفير مختنق وآخر مطلوق، ولم تعد عيناه تستجيب لتغيرات الضوء من حوله، في حين لم يرَ سوى ظلال تمر من أمامه، وحدد مواقعها من زوايا حركتها، كما فقد الشعور بالزمن فلم يعد يميز اليوم إلا بطوله. وحرصت أسرته على عدم تعريض وجهه لضوء الشمس على مدى النهار، سواء في شروقه أو غروبه، فأرخوا ستائر الغرفة بما يتناسب مع رغباتهم، وارتاحوا كثيرًا لذلك بتجنبهم أثر أشعة الشمس المرهق على أعينهم أو بشراتهم، بغضّ النظر عما يفيد هذا المريض -الزوج، أو الأخ أو الأب أو الجد- الراقد على الفراش بلا حول ولا قوة، أو ما يؤذي عينه. كل تلك الأمور لم تعد

تهمه. بمعنى أن الاهتمامات والاعتبارات البشرية أصبحت غير ذات معنى له. أو لم تعد تعني له أكثر مما قد تعنيه لساعة من ساعاته المعلقة على الجدار التي لا تربطها علاقة بالإنسان سوى ما يقدمه لها من خدمات غير مطلوبة، مثل نفض التراب عنها، أو تشحيمها بزيت بذر الكتان، أو ملأ زنبركها، أو الحزن عليها حين تخرج من الخدمة، وتتحطم فيها أجزاء لا يمكن إصلاحها فتفقد للأبد إمكانية مواكبة الزمن.. لم تعد تلك الأمور تعني جورج الذي سبق أن كان جورج، وهو بالتأكيد ليس هذا المخلوق المتقمص هيئة جورج، والراقد على فراشه بين أفراد عائلته. خرج جورج من الجسد الضعيف المحتضر وغادر الغرفة المحاصرة بأفراد عائلته، ولم يعد يسمع نحيب أخته وبناته وزوجته وأحفاده. وكعادة الإنسان، فهو يحزن على الأشياء التي تخرج من الخدمة، أو المخلوقات الحية التي تحتضر، ببساطة لأن تلك هي وسيلته للخوف من النهاية وخشية المجهول وحتمية الموت. هذا الخوف يدفعه لتصور أن مصير كل من يغادر هذا العالم بالضرورة مفزع لأنه مجهول. لكن هذا المخلوق الذي يغادر هيئته المادية إلى عالم آخر بهيئة أخرى لا يستوعب آلام البشر أو أحزانهم، ولا يلقي لها بالًا، أو يجد لها منطقًا.

كلما سقط مصروعًا تخيلته ساعة، أو مثل ساعة انفجر زنبركها وتحطم وتناثرت أجزاء ماكينتها في كل مكان. لكن

الحقيقة أنه لم يشبه الساعة، وأنني الوحيد الذي تخيلته ساعة. أما ما ظن هو في نفسه، فلا أحد يعرف. وحين اكتشفت الحقيقة، عرفت أنني أنا الساعة، وليس هو.

*****

حدَثان وقعا في عام ١٩٥٣، أولهما أخبار عن قرب افتتاح الطريق السريع الداخلي. والثاني هو مرض والدة زوجة هاورد الثانية التي تعيش في بيتسبيرغ. أخبرته ميجان ألا يأتي معها إلى والدتها لأنها إذا عرفت بأمر زواجها من رجل يتبع الكنيسة التوحيدية، ستضيع أي فرصة في شفائها من المرض الذي أصابها.

- ستلفظ أنفاسها الأخيرة وهي تسبني وتلعنني

وعليه، اضطر **هاورد** أن يقضي ليلة عيد الميلاد وحيدًا، وأعدت له ميجان فطيرة الموز بالمثلجات وقالب لحم قبل أن تغادر. اصطحبها إلى محطة الأوتوبيس، وساعدها في استقلال المركبة رقم ٣٤، على الخط الذي ينتهي في محطة بيتسبيرغ. لم تتوقف عن الكلام طوال الوقت إلى أن غادرت، وحتى حين ودعها، نظرت من نافذة الأوتوبيس لتخبره أن يخرج الفانيليا المثلجة من المُجمِّد قبل أن يضعها على فطيرة الموز بربع ساعة كي تظل طرية كما يحبها، وفي النهاية قالت:

- أحبك

- سأكون بخير، سأكون بخير

اندهش أن لزوجته أمًّا تعيش في بيتسبيرغ، وأنها عاشت معه بدون الإتيان على سيرة أمها لخمسة وعشرين عامًا. بعد خمسة أشهر، تم الانتهاء من الطريق السريع الذي يسير بطول شاطئ البحر الشرقي. المهاجرون، المشردون، وعمال اليومية، جميعهم شاركوا في أعمال حفر وتمهيد الطرق عبر الغابات والأنهار والأخاديد والجبال والمستنقعات، ثم فرشوا تلك الطرق بالحصى ثم غمروه بالقطران، ثم قاموا بتسويته وتنعيمه، ورسموا خطًّا أبيض في المنتصف بطوله لتحديد الممرين المتقابلين للسيارات. ومن العادة أن تسمى مشاريع الطرق السريعة الضخمة بأرقام بدلًا من الأسماء.

قبل ليلة عيد الميلاد بيوم، وضع هاورد قالب اللحم البارد في ساندويتش، ومعه ست علب كولا صفيح في كيس ورقي، بالإضافة إلى صندوق صغير به أدواته الشخصية، ثم طلب من زميله بالشركة، جيمي دريزوس، أن يستعير سيارته الفورد الصالون القديمة.

- طبعًا، طبعًا! سيزورنا أبناء العم. بكل تأكيد يمكنك استعارتها

استقل أوتوبيسًا إلى حيث يقطن جيمي في الحي اليوناني بالمدينة، ووصل ليجد صديقه منشغلًا بتبديل اللمبات في أسلاك المصابيح المعلقة على درابزين سلم واجهة المنزل. عرض عليه أن يتناول شرابًا، فرفض.

- لا، شكرًا لك يا جيمي

ثم عرض جيمي عليه طعامًا يأخذه للمنزل.

- شكرًا يا جيمي، شكرًا لك ولزوجتك.

أعطاه جيمي مفاتيح السيارة وطبقًا من لحم الضأن وودعه

- لا تضغط بقوة على المكابح يا صديقي

أومأ موافقًا، ثم ضغط على المكابح وشغل السيارة لينطلق بها خارج ممر الانتظار وتركها تسير على سرعتها. سحب ذراع السرعات وضبطه على السرعة الأولى، ثم رفع قدمه عن المكابح وضغط بها على بدال البنزين. أصدر المحرك صوتًا صاخبًا وعَلِقت السرعة وتعثرت السيارة. وقف جيمي على درج سلم واجهة منزله يراقب الطريق باتجاه سيارته، ولا تزال المصابيح في يديه. صرخ على هاورد:

- ماذا أصابك يا رجل؟ هل أنت مخمور؟

ضحك، ولوح له هاورد وهو يضبط السرعة، ثم انطلق

بسلاسة على سرعة خمسة أميال في الساعة إلى أن وصل لزاوية على الطريق، فالتف بالسيارة حولها فجأة وأبطأ السرعة ليتجاوزها، فعلقت مرة أخرى -هذه المرة بعيدًا عن نظر صاحبها- ثم واصل القيادة. قضى ليلة عيد الميلاد وهو يقود بلا وجهة لأربع ساعات متواصلة في أنحاء فيلادلفيا؛ بغرض التدرب على القيادة.. بحلول الليل عند التاسعة، وجد نفسه على الطريق السريع الجديد، فانطلق عليه متجهًا إلى الشمال. تداعت الأفكار في رأسه: أخفت زوجته عنه أن لها أمًّا في بيتسبيرغ، وأخفى هو عنها تتبعه لأخبار عائلته القديمة، وتقصيه عن أخبارهم، ومعرفته بهجراتهم في أنحاء إنجلترا الجديدة. اتصل بمكاتب البريد ليحصل على عناوينهم بدقة، وتحدث إلى موظفي الاتصالات ليحصل على أرقام تليفوناتهم. وحين انتقل ابنه جورج إلى مدينة إينون، بولاية ماساشوسيتس، أخبره عامل الاتصالات أن هناك رقمان لشخصين اسمهما جي. كروسبي. اتصل هاورد بالرقم الأول فأجابته امرأة عجوز:

- السيدة جيس كروسبي تتحدث. من المتصل؟

أغلق الخط ثم دوّن الرقم الثاني في مفكرته اليومية.

وصل إلى ولاية كونيكتكت، ثم قرر أن يتوقف قريبًا من محطة بنزين، واستسلم للنوم في مقعد السيارة الخلفي

لأربع ساعات، وشعر بجسده متجمدًا من البرد حين استيقظ. أخذ صندوق أدواته وتوجه إلى حمام المحطة حيث وقف يمشط شعره بعدما رشه بالمثبت، وحلق ذقنه بشفرة حادة أعطاها له أبوه عندما بلغ السادسة عشرة، وحافظ عليها منذ ذلك الحين لتبقى حادة ولامعة. غادر المحطة في الظهيرة متخذًا طريقه عبر مخرج ٢٤ على الطريق السريع. أخذ اليسار نحو شارع مين ستريت حيث قاد لأربعة أميال، ومن هناك يسارًا آخر إلى شارع أربور ستريت، ثم أبطأ السرعة ليتفحص أرقام الشوارع على أبواب المنازل وصناديق البريد الخاصة بكل منزل. مر أمام منزل له واجهة مطلية باللون الأصفر، وأسواره مغطاة بالنباتات المتسلقة. اقترب أكثر ودقق في المعلومات المكتوبة على صندوق البريد في أول الممر المحدد على جانبيه بالصخور، والمؤدي إلى باب المنزل الرئيسي، وقرأ (جورج دبليو كروسبي). ودون أن يوقف المحرك، خرج من السيارة وسار في الممر وطرق الباب.

الرجل في الشمال:

١. ننزع اللحاء عن الشجر الميت، فنجد الخشب من تحته ناعمًا ويكاد يسقط بسهولة ويتناثر كالنشارة. أحيانًا نرى على الجذوع الناعمة أسفل اللحاء آثار رسومات أو حروف غريبة منحوتة منذ زمن طويل، إما باستخدام قلم رسم أو

أداة نحت. يقوم من رسم برموزه أو كتب بلغته -أيًّا كانت- بعد الانتهاء من النحت بإعادة اللحاء مرة أخرى إلى الجذع، ليخفي الرمز أو اللغة السرية. حين نزعنا اللحاء اكتشفنا أنها رموز هيروغليفية مكتوبة في صيغة رسالة موجهة إلى من يجدها ويفسرها. وليس بالضرورة أن من يوجهه حدسه لنزع اللحاء سيقدر على فهم الرسالة ولو وجدها. فبالنسبة لمن لن يفهمها، ستكون الرسالة مجرد رموز سحرية وطواطم مقدسة حُفرت على جذع شجرة مر عليها بالصدفة وهو يستكشف الغابة، ليس إلا.

٢. نؤلف قصصًا عن رجال استُخدموا كرُسل لإيصال رسائل لم يعرفوا فحواها. حيث تُحفر الرسالة على ظهر الرسول وتتضمن تعليمات مهمة من المرسِل إلى المرسل إليه، يوشم بها الجلد بغرز الإبر في عمق طبقات اللحم العميقة، وبخطوط عريضة ومجسمة تجعل مستلم الرسالة مضطرًا إلى تقطيع الجلد من خط العمود الفقري، وطيه على الجانبين ليصبح القطع أشبه بنافذة مفتوحة على مصراعيها. وبذلك يتمكن القارئ من الوصول إلى أبعاد الرسالة وقراءتها على أنسجة العضلات بعد نزع الجلد. لا يعلم حامل الرسالة شيئًا عن كونها جزءًا منه، ولا يعرف محتواها، ولا مرسلها. فقد يجده المستلم بالصدفة، فينبئه حدسه أن هناك رسالة هامة محفورة في جسد هذا الرسول، وعليه أولًا أن يحميه

كي لا تصل الرسالة لغيره، وثانيًا أن يفسرها من خلال عملية طويلة وصعبة لفك رموزها الغامضة، وثالثًا تنفيذ المعلومات الواردة بها لأنها بالتأكيد ستنقذ هذا الرسول من خطر مجهول. وهناك سبل متنوعة قد يسير فيها أحد الرسل اعتباطًا فيصادف أحد أولئك الباحثين عن الرسائل، مثلًا أن يأتي الرسول لمتلقي الرسالة محاولًا أن يبيع له حصانًا عجوزًا، أو يقدم له الإفطار في نُزُل حل فيه ضيفًا، أو يقابله دون ترتيب في استراحة عمل لتناول قهوة العصر، فيتناقشان في السياسة وينتقد الرسول أداء السياسيين، فيتعرف عليه بشكل ما.

٣. تلك القصص لم تنم سوى عن جهل. فقد أدركنا بعد وقت حماقة تفسير المجهول على أنه مؤامرة حاكتها ضدنا عصابات سرية. لسبب غير مفهوم، ظننا في أنفسنا المعرفة، وكنا سعداء بما توصلنا إليه. جمعنا كل ما تحصلنا عليه وصادفناه في طريقنا لنشيد مدينتنا ونسكنها ونستقر فيها. صنعنا أكواخًا من الشَّعر، وأعشاشًا من الأسلاك وقطع الحلي المعدنية والخيوط التي لففناها حول حبات الجوز وعلقناها في الأسقف لتتدلى منها. استخدمنا أحيانًا شريطًا لاصقًا لنعلقها، وأحيانًا أخرى قطعة علكة مستخدمة، لأن هناك خيوطًا قد لا يصلح معها التثبيت بالمسامير التي في حوزتنا. ورفعنا أعمدة تاون هول على شفاطات المشروبات

البلاستيكية، أغلبها كانت شفاطات مستقيمة والبعض كانت من ذوات الأطراف المثنية. وأسسناها بأغطية محركات السيارات المعدنية ورقائق الألومنيوم، الموجودة في علب السجائر. عاش كثيرون من سكان المدينة فوق أغصان الشجر المعقوفة، أسفل مظلات من جرائد الأحد القديمة التي حوّلت أشعة الشمس لون ورقها إلى البني. ذابت بيوت المدينة تحت المطر وتحولت إلى بذور، بينما جرفت السكان في العراء حيث جلسوا تحت الشمس إلى أن جفوا، ثم نهضوا ليبدأوا البحث عن مواد جديدة للبناء، وجمعوا علب الصفيح وقطع النيكل وعلب الكبريت والمراكب المصنوعة من الورق المقوى المتشبعة بزيت البطاطس أو حلقات البصل المقلية.

٤. نغوص في البحر الأخضر حين يتحول إلى اللون الرمادي ويتكون على سطحه طبقة تشبه نسيج الخلية. نقف على الشاطئ فتمزق تلك الطبقة النسيجية نفسها لتفسح لنا المجال، وبعد أن نغطس إلى القاع بحثًا عن القواقع، تلتئم مجددًا وتغطي السطح كأنها لم تمس. يعم الظلام قلب البحر ونتخبط كالعميان. نحفر في الرمال ونعثر على صخور ناعمة لنصنع لأنفسنا عباءات من الريح والضباب. وكذلك نضيف إليهما أي شيء نجده عالقًا في شعرنا حين نصعد إلى السطح، فنجده فضيًا كالزئبق، ويعود من جديد يلتئم دون

أن يظهر فيه خط التئام، فتنمو جزيئاته الدقيقة وتتكثف مثل جزيئات الذرة. نعبر البحار مرتحلين في أقماع الثمار الفارغة، ونمخر عبابه ونحن نمر بالأجراف الصخرية إلى أن نرى الأشجار وقد غطاها الجليد عند القطب الشمالي. نتأمل الشواطئ حيث تهب العواصف الثلجية والرملية.

٥. عندما يحين الموت، نشعر بقدومه فنذهب إلى الغابات البعيدة ونرقد في عمقها حيث تتحول عظامنا إلى نحاس، ويأتي من يجمعنا ويستخدمنا في تصليح الساعات المكسورة وصناديقها الموسيقية. وتصلح أحواضنا على الأخص لصنع محاور التروس، وأعمدتنا الفقارية تدمج في قطع الماكينة الدقيقة. أما ضلوعنا فيصنع منها أسنان تروس السرعة، ثم تصقل وتضغط لتصبح ألسنة تربط الأجزاء ببعضها البعض. وهكذا في النهاية نلتئم من جديد ونصبح كيانًا واحدًا.

كان آخر ما تذكره جورج واشنطن كروسبي أثناء احتضاره عشاءَ ليلة عيد الميلاد في عام ١٩٥٣، حين سمع رنين جرس الباب هو وزوجته وابنتيه بيتسي وكلير الجالستين إلى جواره وهو يحتضر، تنتحبان وقد شحب وجهاهما وبدا عليهما الإرهاق والتعب، وقد أحبهما من قلبه وعرف أنهما ستبقيان إلى جواره دائمًا وستحبانه بقدر ما أحبهما إلى

أن يموت. حين دق الجرس في تلك الليلة كانوا هم الأربعة جالسين على مائدة العشاء. كان هذا كل ما تذكره. لم يتذكر ما حدث لحظتها، ولا أنه نهض عن المائدة ليفتح، أو سار إلى الباب وهو يقول لنفسه:

- يا ربي! ماذا الآن؟

حين فتح الباب، رأى أمامه الزمن الطويل الذي مر منذ كان طفلًا مراهقًا يبلغ من العمر اثني عشر عامًا، إلى أن أصبح في تلك اللحظة رجلًا ناضجًا في منتصف العمر وزوجًا وأبًا. تقلص الزمن الطويل فجأة وتراجع إلى نقطة الصفر حين ميز الرجل العجوز الذي طرق بابه ووقف على أعتاب بيته، فعرف أنه أبوه؛ أبوه الذي لم يره منذ الليلة التي عاد فيها من جولاته الريفية ليبيع بضائعه من فُرشات وصابون لزبوناته ربات البيوت القاطنات في الغابة الخلفية. الليلة التي مر فيها بمنزله دون أن يترجل عن عربته ليلقي نظرة أخيرة على عائلته من زجاج نافذة المطبخ، ثم همز الأمير إدوارد ليواصل السير دون التوقف عند المنزل كما اعتاد إلى أن بلغ فيلادلفيا بلا هوية. دخل أبوه وجلس على الأريكة بعدما خلع قبعته ووضعها في حجره، بينما بقيت سيارته المؤجرة دائرة وواقفة على جانب الطريق. أشرَفَ الطعام على الطاولة على أن يبرد، ولكنه رفض دعوة ابنه للعشاء وقال:

- لا، لا

لم يستطع المكوث، واكتفى بسؤال جورج عن أحواله

- هل أنتَ بخير؟ وكيف حال أختيك؟ ووالدتك؟ وجو؟ نعم، نعم، إذن هذه هي...؟ بيتسي، نعم بيتسي، وأنتِ؟... كلير، نعم، نعم، أرى أنك خجولة. أنا....؟ مجرد رجل عجوز غريب. نعم، حسنًا، عليّ الذهاب الآن. سعدت برؤيتك مرة أخرى يا جورج. نعم، نعم، سأفعل. مع السلامة.

*****

انتهت

الهوامش

(1)البوتشي هي كرات من الحديد أو البلاستيك يرجع تاريخها للعصر الروماني وتنتشر الآن في عدد من الدول الأوروبية وأمريكا الشمالية.

(2)حالة مرضية تعرف باسم الشلل الارتعاشي

(3)شاعر روماني قديم

(4)لعبة عبارة عن تجميع البطاقات الورقية في مجموعات بطريقة معينة لكسب النقاط.

(5)حصن بحري يقع في كارولينا الجنوبية. وهو أول حصن اتحاديّ يستولي عليه الحلفاء خلال الحرب الأهلية الأمريكية.